سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ المُيَسَّرَةُ

إعداد : شهاب سلطان

رسوم : عبد الرحمن بكر

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
07 230195 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2015 - 1436 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

1

كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْـرَةَ، مِنْ شَـهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، مِنْ عَامِ الْفِيلِ، وَالْقَمَرُ قَدِ اقْتَرَبَ كَثِيرًا مِنْ أَنْ يَكُونَ بَدْرًا، وَرَغْمَ أَنَّهُ أَرْسَلَ نُورًا فِضِّيًّا أَضْفَى عَلَى الْجِبَالِ وَالْوِدْيَانِ رَوْنَقًا وَجَمَالًا يُوحِي بِالْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ كَانَ قَلِقًا، يَتَمَنَّى أَنْ يُسْرِعَ بِالرَّحِيلِ لِيَتْرُكَ مَكَانَـهُ لِلنَّهَارِ الْقَادِمِ يَحْمِلُ الْبُشْـرَى لِلْعَالَـمِ كُلِّهِ، وَلِأَنَّهُ يَعْلَـمُ أَنَّ النَّهَارَ الْآنَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَلَنْ يَأْتِيَ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ وَقْتُهُ هُنَاكَ، فَقَدِ اضْطُرَّ لِلِانْتِظَارِ، فَكُلُّ شَيْءٍ بِمِيعَادٍ.

أَرْسَـلَ اللَّيْلُ حُزْمَةً مِنْ نُورِهِ، تَحْمِلُ رِسَـالَةَ حُبٍّ وَأُمْنِيَّاتٍ بِالسَّـلَامَةِ إِلَى آمِنَةَ بِنْتِ وَهْـبٍ، بَحَثَـتْ عَـنْ شُـبَّاكِهَا، وَاخْتَرَقَتِ السِّـتَارَةَ الرَّقِيقَةَ الْمُسْـدَلَةَ عَلَى الشُّـبَّاكِ، ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى وَجْهِهَا الْجَمِيلِ، فَزَادَ إِشْرَاقًا عَلَى إِشْرَاقٍ.

كَانَتْ آمِنَةُ قَدْ أَتَمَّتْ شُـهُورَ حَمْلِهَا فِي يُسْـرٍ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَا تَشْعُرُ بِهِ ذَوَاتُ الْحَمْلِ الْأَوَّلِ مِنْ عَنَاءٍ، وَتَنْتَظِرُ خُرُوجَ وَلِيدِهَا إِلَى الْحَيَاةِ. تَجْلِسُ الْآنَ شَارِدَةً تُفَكِّرُ فِي وَلِيدِهَا الْمُنْتَظَرِ الَّذِي بَشَّـرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ سَيِّدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَتُفَكِّرُ فِي زَوْجِهَا عَبْدِاللهِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الَّذِي رَحَلَ إِلَى الْآخِرَةِ بَعْدَ شَهْرَيْنِ فَقَطْ مِنْ زَوَاجِهِمَا، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ تَرَكَ فِي رَحِمِهَا جَنِينًا سَيَهْبِطُ إِلَى الدُّنْيَا يَتِيمًا.

رَأَى اللَّيْـلُ قُـرْصَ الشَّـمْسِ آتِيًا مِنْ بَعِيدٍ، يَسْـبِقُهُ ضِيَـاؤُهُ، فَبَدَأَ فِي الرَّحِيـلِ، وَتَرَكَ مَكَانَهُ لِلضِّيَاءِ الْقَادِمِ مِنْ فَوْقِ قِمَمِ الْجِبَالِ، وَرَاحَ يَتَّكِئُ عَلَيْهَا لِيَهْبِطَ إِلَى الْبُيُوتِ الطِّينِيَّةِ الْمُتَنَاثِـرَةِ فِي الْوَادِي، لِيَلْطِمَ التَّمَاثِيلَ الْحَجَرِيَّةَ الْمُنْتَشِـرَةَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ عَلَى رُؤُوسِـهَا، وَيَدُقَّ الْأَبْوَابَ يُوقِظُ النَّاسَ مِنْ سُـبَاتِهِمْ، وَيُبَشِّـرُهُمْ بِالضِّيَاءِ الْقَادِمِ إِلَيْهِمْ مِنْ دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فُتِحَتْ كُلُّ الْأَبْوَابِ، وَخَرَجَ الْقُرَشِيُّونَ أَشْرَافًا وَعَبِيدًا إِلَى الطُّرُقَاتِ، وَتَفَرَّقُوا كُلٌّ إِلَى عَمَلِهِ، لَا يَدْرُونَ لِمَاذَا يُعَشِّشُ الْوُجُومُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا لِمَاذَا تَغْشَى عُيُونَهُمْ، فَلَا يَرَوْنَ الطَّرِيقَ.

وَاجْتَمَعَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ حَوْلَ سَيِّدِهِمْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي دَارِ النَّدْوَةِ كَعَادَتِهِمْ، وَارْتَفَعَ قُرْصُ الشَّمْسِ فِي الْفَضَاءِ، وَزَادَ الضِّيَاءُ، وَرَاحَتْ أَنْظَارُ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ تَتَّجِهُ نَاحِيَةَ بَيْتِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ وَهِيَ تَضَعُ مَوْلُودَهَا الْقَادِمَ إِلَى الدُّنْيَا يَتِيمًا، وَحِينَ صَرَخَ صَرْخَتَهُ الْأُولَى.. تَرَاقَصَتْ أَفْرُعُ الشَّجَرِ، وَغَنَّتِ الطُّيُورُ وَتَرَاقَصَتْ فِي الْفَضَاءِ، وَكَفَّتِ الْحَيَوَانَاتُ فِي مَرَاعِيهَا عَنِ الْتِهَامِ الطَّعَامِ، وَرَفَعَتْ رِقَابَهَا إِلَى أَعْلَى وَرَاحَتْ تَشْكُرُ الرَّحْمَنَ عَلَى هَدِيَّتِهِ إِلَى الدُّنْيَا.

أَسْرَعَتْ بَرَكَةُ (أُمُّ أَيْمَنَ) جَارِيَةُ آمِنَةَ إِلَى سَيِّدِهَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي دَارِ النَّدْوَةِ تُبَشِّرُهُ بِالْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَ، فَأَسْرَعَ عَائِدًا إِلَى الدَّارِ، وَحَمَلَ الْوَلِيدَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ فَرِحًا بِهِ.. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى آمِنَةَ وَقَالَ لَهَا بَاسِمًا:

- سَنُسَمِّيهِ مُحَمَّدًا.

حَمَلَ الْجَدُّ حَفِيدَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، يُعْلِنُ لِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ عَنْ وُصُولِهِ إِلَى الدُّنْيَا، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ أَسْمَاهُ مُحَمَّدًا، وَحِينَ سَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ اخْتِيَارِهِ هَذَا الِاسْمَ الَّذِي لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ، قَالَ:

- أُرِيدُ أَنْ يَحْمَدَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ وَأَهْلُ السَّمَاءِ.

ثُمَّ طَافَ الْجَدُّ بِحَفِيدِهِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ، وَهُوَ يَشْكُرُ اللهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُ، وَحِينَ أَنْهَى طَوَافَهُ، عَادَ بِهِ وَأَعْطَاهُ إِلَى أُمِّهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- دَعِي ثُوَيْبَةَ جَارِيَةَ أَبِي لَهَبٍ تُرْضِعْهُ مَعَ ابْنِهَا حَتَّى تَأْتِيَ مَرَاضِعُ بَنِي سَعْدٍ.

وَلَمْ تَمُرَّ أَيَّامٌ كَثِيرةٌ وَجَاءَتِ الْمُرْضِعَاتُ مِنْ بَنِي سَعْدٍ إِلَى مَكَّةَ كَعَادَتِهِنَّ كُلَّ عَامٍ، وَكَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ ذُؤَيْبٍ آخِرَ مَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَكَّةَ مِنَ الْمُرْضِعَاتِ؛ فَقَدْ جَاءَتْ تَرْكَبُ حِمَارَةً عَجْفَاءَ لَا تَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، بَيْنَمَا يَرْكَبُ زَوْجُهَا نَاقَةً مُسِنَّةً تَتَرَنَّحُ فِي سَيْرِهَا مِنَ الْهُزَالِ. فَوَجَدَتْ أَنَّ كُلَّ مُرْضِعَةٍ مِنْ نِسَاءِ قَوْمِهَا قَدْ أَخَذَتْ رَضِيعًا، وَكُلُّهُنَّ رَفَضْنَ مُحَمَّدًا، فَمَاذَا سَيَفْعَلْنَ بِالْيَتِيمِ؟ وَمَنِ الَّذِي سَيُكَافِئُهُنَّ عَلَى إِرْضَاعِهِ وَكَفَالَتِهِ لِمُدَّةِ عَامَيْنِ حَتَّى فِطَامِهِ؟

لَمْ يُعْرَضْ عَلَى حَلِيمَةَ بِنْتِ ذُؤَيْبٍ طِفْلٌ آخَرُ، وَظَلَّتْ مُنْتَظِرَةً حَتَّى كَادَ النَّهَارُ يَنْتَهِي، فَصَعُبَ عَلَيْهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى الدِّيَارِ دُونَ طِفْلٍ تُرْضِعُهُ.. فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا:

- إِنِّـي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مَـعَ صَاحِبَاتِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا. وَاللهِ لَأَذْهَبَـنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَآخُذَهُ.

رَحَّبَ زَوْجُهَا بِالْفِكْرَةِ، وَقَالَ لَهَا:

- اذْهَبِي.. رُبَّمَا جَعَلَ اللهُ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً.

ذَهَبَـتْ حَلِيمَـةُ وَأَحْضَرَتْ مُحَمَّدًا، وَجَلَسَـتْ بِجِـوَارِ زَوْجِهَا، وَوَضَعَـتِ الرَّضِيعَ فِي حِجْرِهَا، وَإِذَا بِهَا تَشْـعُرُ بِأَنَّ اللَّبَنَ يَتَدَفَّقُ مِنْ بَيْنِ خَلَايَا جَسَـدِهَا إِلَى ثَدْيَيْهَا، فَأَشْـرَقَ وَجْهُهَـا بِالرِّضَا، وَانْتَظَرَتْ حَتَّـى امْتَلَأَ وَنَاوَلَتْهُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَرَاحَ يَمُصُّهُ حَتَّى شَـبِـعَ، وَتَرَكَ الثَّانِيَ لِأَخِيهِ الَّذِي نَهِلَ مِنْ صَدْرِ أُمِّهِ مَا لَمْ يَجِدْهُ مِنْ قَبْلُ حَتَّى ارْتَوَى، وَنَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَامَ بِجِوَارِهِ مِنْ شِدَّةِ بُكَائِهِ مِنَ الْجُوعِ. وَقَامَ زَوْجُهَا لِيَطْمَئِنَّ عَلَى نَاقَتِهِمْ، وَحِينَ اقْتَرَبَ مِنْهَا وَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى ضَرْعِهَا.. تَوَقَّفَ مَشْدُوهًا؛ فَالضَّرْعُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَجُودُ بِنُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّبَنِ، مَمْلُوءٌ عَنْ آخِرِهِ يَنْتَظِرُ مَنْ يَحْلِبُهُ.

أَسْرَعَ الرَّجُلُ وَأَحْضَرَ وِعَاءً، وَعَادَ إِلَى نَاقَتِهِ فِي صَمْتٍ، فَجَادَ الضَّرْعُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ لَبَنٍ، فَمَلَأَ الرَّجُلُ الْوِعَاءَ، وَأَسْرَعَ إِلَى زَوْجَتِهِ فَرِحًا غَيْرَ مُصَدِّقٍ مَا حَدَثَ، وَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا وَهُوَ يَقُولُ:

- وَاللهِ لَقَدْ أَحْضَرْتِ لَنَا نَسْمَةً مُبَارَكَةً.

شَرِبَتْ حَلِيمَةُ مِنْ لَبَنِ النَّاقَةِ حَتَّى ارْتَوَتْ، وَشَرِبَ الرَّجُلُ أَيْضًا حَتَّى ارْتَوَى.. وَنَامَ الْجَمِيعُ لَيْلَةً هَادِئَةً حَتَّى الصَّبَاحِ.

2

حِينَ أَعَادَ قُرْصُ الشَّمْسِ إِشْرَاقَهُ عَلَى مَكَّةَ، وَدَّعَ الْجَمْعَ الْعَائِدَ إِلَى دِيَارِ بَنِي سَعْدٍ، وَفِيهِمْ نَبِيُّ الْأُمَّةِ الْيَتِيمُ بَيْنَ ذِرَاعَيْ مُرْضِعَتِهِ عَلَى ظَهْرِ حِمَارَةٍ عَجْفَاءَ كَانَتْ تَتَعَثَّرُ فِي الْقُدُومِ حَتَّى جَاءَتْ مُتَأَخِّرَةً عَنِ الْجَمِيعِ، أَمَّا الْآنَ.. فَقَدْ دَبَّتْ فِيهَا الْحَيَوِيَّةُ وَالنَّشَاطُ وَسَبَقَتْ كُلَّ حَمِيرِ النِّسَاءِ.

تَعَجَّبَتِ النِّسَاءُ مِنْ حَالِ حِمَارَةِ حَلِيمَةَ، وَرُحْنَ يَتَصَايَحْنَ عَلَيْهَا، وَيَقُلْنَ لَهَا:

- وَيْحَكِ يَا بِنْتَ أَبِي ذُؤَيْبٍ، انْتَظِرِي.

أَوْقَفَتْ حَلِيمَةُ حِمَارَتَهَا انْتِظَارًا لِصَاحِبَاتِهَا، وَحِينَ وَصَلْنَ إِلَيْهَا سَأَلْنَهَا :

- أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْحِمَارَةَ الَّتِي أَتَيْتِ عَلَيْهَا؟!

رَدَّتْ حَلِيمَةُ فِي سَعَادَةٍ قَائِلَةً:

- بَلَى وَاللهِ.. إِنَّهَا هِيَ.

تَعَجَّبَتِ النِّسَاءُ مِنَ التَّحَوُّلِ الَّذِي حَدَثَ لِحِمَارَةِ حَلِيمَةَ وَقُلْنَ:

- وَاللهِ إِنَّهَا لَمُعْجِزَةٌ أَنْ تَسْبِقَ حِمَارَتُكِ حَمِيرَنَا.

وَاصَلَ الْجَمِيعُ سَيْرَهُمْ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دِيَارِهِمْ بِسَلَامٍ، وَتَفَرَّقَتِ النِّسْوَةُ كُلٌّ مِنْهُنَّ إِلَى دَارِهَا، وَدَخَلَتْ حَلِيمَةُ بِرَضِيعِهَا الْيَتِيمِ إِلَى حُجْرَتِهَا. مَأْمَأَتِ الْأَغْنَامُ مُرَحِّبَةً، وَانْسَحَبَ صَهْدُ الشَّمْسِ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ نَسْمَةٌ رَقِيقَةٌ. تَعَجَّبَتْ حَلِيمَةُ وَنَظَرَتْ إِلَى زَوْجِهَا مُتَسَائِلَةً.. تَبَسَّمَ زَوْجُهَا فِي وَجْهِهَا وَقَالَ لَهَا:

- أَلَمْ أَقُلْ لَكِ إِنَّكِ أَحْضَرْتِ نَسْمَةً مُبَارَكَةً؟

لَمْ يَشْعُرِ الرَّضِيعُ بِالْغُرْبَةِ، بَلْ شَعَرَ بِالرَّاحَةِ وَالْأَمَانِ، فَقَدِ ابْتَعَدَ عَنْ جَوِّ مَكَّةَ الْقَاسِي، وَانْتَقَلَ إِلَى جَوِّ بَنِي سَعْدٍ الْجَافِّ، ذِي الْهَوَاءِ النَّقِيِّ، وَرَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ أَحْضَانِ حَلِيمَةَ وَأَحْضَانِ الطَّبِيعَةِ ذَاتِ الْهُدُوءِ وَالصَّفَاءِ، وَصَارَ الْيَوْمُ فِي عُمْرِهِ بِأُسْبُوعٍ مِنْ أَيَّامِ غَيْرِهِ، فَقَدْ كَانَ الْمَكَانُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ خَيْرًا، وَكَانَ هُوَ خَيْرًا عَلَى الْمَكَانِ وَأَصْحَابِهِ؛ حَيْثُ انْتَقَلَتْ بِهِمُ الْحَالُ مِنَ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَالْجَفَافِ إِلَى الْخَيْرِ وَالضُّرُوعِ الْمَمْلُوءَةِ بِاللَّبَنِ.

وَحِينَ قَامَتْ حَلِيمَةُ بِفِطَامِهِ بَعْدَ عَامَيْنِ، كَانَ قَدْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى السَّعْيِ مَعَ الْحِمْلَانِ مِنَ الْأَغْنَامِ وَالْبَشَرِ حَوْلَ الدُّورِ، تَلْتَقِطُ أُذُنَاهُ بَلِيغَ الْكَلَامِ وَعَذْبَهُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ، فَتَفَتَّحَتْ مَوَاهِبُهُ عَلَى صَفَاءِ الصَّحْرَاءِ وَهُدُوئِهَا، وَإِشْرَاقِ شَمْسِهَا وَنَقَاءِ هَوَائِهَا، فَصَارَ فَصِيحَ اللِّسَانِ جَرِيءَ الْقَلْبِ وَالْجَنَانِ.

وَبَعْـدَ أَنْ قَضَـى مُحَمَّدٌ خَمْسَ سَـنَواتٍ فِي رُبُوعِ بَنِي سَـعْدٍ، فَاضَ فِيهَـا الْخَيْرُ عَلى حَلِيمَـةَ وَأَغْنَامِهَـا، قَرَّرَتْ حَلِيمَةُ وَزَوْجُهَـا أَنْ يَرُدَّا مُحَمَّدًا إِلَى أُمِّهِ، الَّتِي انْشَـرَحَ قَلْبُهَا حِيـنَ رَأَتْهُ وَفَرِحَتْ بِهِ وَتَمَنَّـتْ لَوْ تَخْرُجُ بِهِ إِلَى يَثْرِبَ لِتُرِيَهُ قَبْرَ أَبِيهِ، وَتَرْوِيَ ظَمَأَ قَلْبِهَا بِالْوُجُـودِ فِي حَضْـرَةِ زَوْجِهَا النَّائِمِ هُنَـاكَ فِي التُّرَابِ، وَيُحَدِّثُهَا قَلْبُهَـا بِأَنَّهُ هُوَ الْآخَرُ فِي شَوْقٍ لِأَنْ يَرَى وَلَدَهُ.

وَافَقَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلَى رَغْبَةِ آمِنَةَ فِي السَّفَرِ إِلَى يَثْرِبَ، وَسَمَحَ لَهَا بِأَنْ تَأْخُذَ مُحَمَّدًا مَعَهَـا، عَـلَى أَنْ تُصَاحِبَهُمَا أُمُّ أَيْمَنَ، وَأَمَرَ أَنْ تُعَدَّ لَهُمَا نَاقَتَانِ مِـنَ النُّوقِ الْقَوِيَّةِ الْهَادِئَةِ الْمُعْتَادَةِ السَّفَرَ، وَأَنْ يُحَمَّلَ بَعِيرٌ بِمَا يَكْفِيهِمْ مِنَ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ.

وَفِي الْيَوْمِ الْمُحَدَّدِ لِلرَّحِيلِ، تَحَرَّكَتِ الْقَافِلَةُ الصَّغِيرَةُ إِلَى الشَّـمَالِ، تُصَاحِبُهَا نَسْمَةٌ رَقِيقَةٌ عَذْبَةٌ، فَلَمْ يَشْـعُرُوا قَطُّ بِصَهْدِ الطَّرِيقِ وَلَا بِمَشَقَّةِ السَّفَرِ. تَخْطُو الْإِبِلُ خُطُوَاتِهَا فِي هُـدُوءٍ وَنُعُومَةٍ، حَتَّـى وَصَلَتْ إِلَى يَثْرِبَ، وَنَاخَتْ أَمَامَ بَابٍ مِـنْ أَبْوَابِ بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ زَوْجِهَا عَبْدِاللهِ.

هَبَطَـتْ آمِنَـةُ مِنْ هَوْدَجِهَا وَهِيَ تَحْتَضِـنُ وَلَدَهَا، وَكَذَلِكَ فَعَلَـتْ جَارِيَتُهَا أُمُّ أَيْمَنَ. وَدَقَّتْ آمِنَةُ الْبَابَ تَسْتَأْذِنُ أَصْحَابَهُ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهِمْ.. وَحِينَ صَارَتْ بَيْنَهُمْ، طَلَبَتْ مِنْهُمْ أَنْ تَرَى الْبَيْتَ الَّذِي فَارَقَهَا فِيهِ زَوْجُهَا، وَالْمَكَانَ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ. فَدَلُّوهَا عَلَيْهِ.

صَاحَبَـتْ آمِنَـةُ وَلَدَهَا وَرَاحَتْ بِـهِ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي انْتَقَلَ مِنْهُ أَبُـوهُ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ، ثُمَّ صَحِبَتْهُ إِلَى قَبْرِهِ، وَجَلَسَتْ بِهِ بِجِوَارِهِ، وَقَدَّمَتْهُ لَهُ وَهِيَ تَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ رُوحُهُ حَاضِرَةً لِتَرَى الصَّبِيَّ الَّذِي جَاءَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ رَحَلَتْ عَنْهَا.

ظَلَّتْ آمِنَةُ بِجِوَارِ قَبْرِ زَوْجِهَا شَهْرًا كَامِلًا، تَسْتَنْشِقُ عَبِيرَ زَوْجِهَا كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى حَانَ مَوْعِدُ عَوْدَتِهَا إِلَى مَكَّةَ، فَوَدَّعَتْ زَوْجَهَا عَلَى أَمَلِ اللِّقَاءِ، وَسَارَتِ الْقَافِلَةُ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ،

حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى وَادِي الْأَبْوَاءِ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالزَّرْعِ، فَأَنَاخَتْ آمِنَةُ نَاقَتَهَا طَلَبًا لِلرَّاحَةِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ أُمُّ أَيْمَنَ وَأَسْرَعَتْ إِلَى سَيِّدَتِهَا لِتَطْمَئِنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهَا آمِنَةُ:

- أَشْعُرُ بِوَعْكَةٍ خَفِيفَةٍ، دَعِينَا نَسْتَرِحْ هُنَا قَلِيلًا.

كَانَتْ آمِنَةُ عَلَى مَوْعِدٍ لِلِّحَاقِ بِزَوْجِهَا، فَلَمْ تَطُلْ عِلَّتُهَا، وَلَمْ يَطُلْ بِهَا الِانْتِظَارُ. وَكَحَّلَتْ عَيْنَيْهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَلَدِهَا طَوِيلًا، ثُمَّ أَغْمَضَتْهُمَا وَأَسْرَعَتْ رُوحُهَا لِلِقَاءِ بَارِئِهَا، وَاضْطُرَّتْ أُمُّ أَيْمَنَ إِلَى أَنْ تَطْلُبَ الْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ الْأَبْوَاءِ، فَسَاعَدُوهَا عَلَى تَجْهِيزِ آمِنَةَ لِلِقَاءِ رَبِّهَا، وَحَفْرِ قَبْرِهَا، وَأَهَالُوا عَلَيْهَا الرِّمَالَ، بَعْدَ أَنْ أَضَافَتْ يُتْمًا جَدِيدًا لِوَلَدِهَا.

وَدَّعَتْ أُمُّ أَيْمَنَ سَيِّدَتَهَا، وَصَاحَبَتِ الْحَبِيبَ الصَّغِيرَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ، أَخَذَتْهُ فِي حِضْنِهَا وَظَلَّتْ طَوَالَ الطَّرِيقِ تُكَفْكِفُ دَمْعَهَا وَتَكْتُمُ مَا يُؤْلِمُهَا مِنْ أَحْزَانٍ؛ حَتَّى لَا تَزِيدَ مِنْ أَحْزَانِ الصَّغِيرِ الَّذِي عَرَفَ مَعْنَى الْحُزْنِ الْحَقِيقِيِّ، وَقَرَّرَتْ أَنْ تَكُونَ لَهُ أُمًّا رَغْمَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي الدُّنْيَا سَيُعَوِّضُهُ حِرْمَانَهُ أُمَّهُ.

3

اسْـتَقْبَلَ الْجَـدُّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَفِيـدًا بِلَا أَبٍ يُدَعِّـمُ غَـدَهُ، وَلَا أُمٍّ تَحْتَضِنُهُ لِيَمْتَصَّ جَسَـدُهَا آلَامَ جَسَدِهِ، وَتُسْكِنَهُ فِي قَلْبِهَا تَبُثُّ إِلَيْهِ الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ، وَتَصْنَعُ مِنْهُ رَجُلًا، لَكِنْ.. هَذَا مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَمَا شَاءَ.

عَـاشَ مُحَمَّـدٌ فِي رِعَايَـةِ جَدِّهِ الَّذِي يُحَـاوِلُ أَنْ يَكُونَ أَبًـا لَهُ وَلَيْسَ جَـدًّا، وَتَخْدُمُهُ حَاضِنَتُـهُ أُمُّ أَيْمَـنَ الَّتِي تُحَاوِلُ أَنْ تُعَوِّضَـهُ حَنَانَ أُمِّهِ، لَكِنْ مَا الَّـذِي يُعَوِّضُ الْحِرْمَانِ مِنَ الْأُمِّ؟

لَمْ تَسْـتَطِعِ الْحَيَاةُ فِي حِضْنِ الْجَدِّ الْحَنُونِ، وَلَا رِعَايَةُ أُمِّ أَيْمَنَ، وَلَا ضَجِيجُ الْحَيَاةِ فِي مَكَّـةَ، أَنْ تَجْعَلَ الصَّغِيرَ يَنْسَـى مَشْـهَدَ رَحِيـلِ أُمِّهِ، وَلَا نَظَرَاتِ وَدَاعِهَـا الْأَخِيرِ لَهُ، وَلَا عَيْنَيْهَـا وَهُمَـا تُغْلَقَانِ لِلْأَبَـدِ، وَلَا الرِّمَالَ وَهِيَ تَنْهَالُ بِيَدِ أَهْـلِ الْأَبْوَاءِ فَوْقَ قَبْرِهَا. وَمَضَتْ بِهِ الْأَيَّامُ حَزِينَةً حَتَّى أَكْمَلَ عَامَهُ الثَّامِنَ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ تَرْحَمْهُ الْأَيَّامُ. وَمَرِضَ جَدُّهُ.. فَلَزِمَ بِجِوَارِ فِرَاشِهِ لَا يُفَارِقُهُ.

وَحِينَ اشْـتَدَّ الْمَرَضُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَا شِـفَاءَ مِنْهُ، اسْتَدْعَى وَلَدَهُ أَبَا طَالِبٍ وَقَالَ لَهُ:

ـ اسْـمَعْ يَـا وَلَدِي، لَقَدْ تَرَكْـتُ أَوْلَادِي جَمِيعًـا وَاخْتَصَصْتُكَ بِابْنِ أَخِيـكَ عَبْدِ اللهِ، لِأَنَّـكَ مِنْ أُمِّ أَبِيهِ. أُرِيـدُكَ أَنْ تَكُونَ حَافِظًا لَهُ، فَهُوَ وَحِيدٌ لَمْ يَشُـمَّ رَائِحَةَ أَبِيهِ، وَلَمْ يَـذُقْ شَـفَقَةَ أُمِّهِ، وَأُرِيـدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَسَـدِكَ بِمَنْزِلَةِ كَبِدِكَ، وَإِنِ اسْـتَطَعْتَ تَتَبَّعَهُ فَافْعَلْ، وَأُرِيدُكَ أَنْ تَنْصُرَهُ بِلِسَانِكَ وَيَدِكَ وَمَالِكَ، فَإِنَّهُ ـ وَاللهِ ـ سَيَسُودُكُمْ، وَيَمْلِكُ

مَا لَمْ يَمْلِكْ أَحَدٌ مِنْ آبَائِي، فَهَلْ قَبِلْتَ؟

رَدَّ أَبُو طَالِبٍ عَلَى وَالِدِهِ وَقَالَ:

- قَدْ قَبِلْتُ يَا أَبِي، وَاللهُ عَلَى مَا أَقُولُ شَهِيدٌ.

مَدَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَدَهُ وَرَبَّتَ يَدَ وَلَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- الْآنَ خُفِّفَ عَنِّي الْمَوْتُ.

وَأَمْسَكَ الْجَدُّ بِرَأْسِ حَفِيدِهِ وَقَبَّلَهُ وَقَالَ لَهُ:

- أَشْهَدُ أَنِّي لَمْ أَرَ أَحَدًا فِي أَوْلَادِي أَطْيَبَ رِيحًا مِنْكَ وَلَا أَحْسَنَ وَجْهًا.

وَيَتَكَرَّرُ الْمَشْهَدُ فِي عَيْنَيِ الصَّبِيِّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ... تَتَعَلَّقُ بِهِ عَيْنَا جَدِّهِ ثُمَّ تُغْلَقَانِ، وَتَنْسَحِبُ الرُّوحُ صَاعِدَةً إِلَى خَالِقِهَا.

لَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ قَطُّ بِالْحُزْنِ الَّذِي شَعَرَ بِهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةِ، فَبَكَى بُكَاءً مُرًّا وَهُوَ يُوَدِّعُ جُثْمَانَ جَدِّهِ قَبْلَ أَنْ يُوَارَى التُّرَابَ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ.

كَانَ أَبُو طَالِبٍ قَلِيلَ الْمَالِ كَثِيرَ الْعِيَالِ، إِذَا اجْتَمَعَ عِيَالُهُ جَمِيعًا لَا يَشْبَعُونَ، وَحِينَ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ ابْنُ عَمِّهِمْ عَبْدِ اللهِ.. صَارَ الطَّعَامُ يَكْفِيهِمْ جَمِيعًا وَيَشْبَعُونَ. وَإِذَا كَانَ طَعَامُهُمْ لَبَنًا.. يُعْطِي الرَّجُلُ الْإِنَاءَ لِابْنِ أَخِيهِ أَوَّلًا.. فَيَشْرَبُ مِنْهُ حَتَّى يَرْتَوِيَ، وَيُنَاوِلُهُ لِلَّذِي بِجِوَارِهِ لِيَشْرَبَ حَتَّى يَرْتَوِيَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَرْتَوُوا جَمِيعًا مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنْ يَنْهَلَهُ وَحْدَهُ، وَبِالْكَادِ يَكْفِيهِ. فَيَقُولُ لَهُ أَبُو طَالِبٍ:

- إِنَّكَ لَمُبَارَكٌ يَا وَلَدِي.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي بَيْتِ عَمِّهِ، وَقَدْ أَثَّرَتِ فِيهِ الْمِحَنُ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَتْهُ رَقِيقَ الْقَلْبِ مُرْهَفَ الشُّعُورِ، وَجَعَلَتْ نَفْسَهُ أَكْثَرَ رِقَّةً وَتَوَاضُعًا. وَحِينَ رَأَى

عَمَّـهُ قَلِيلَ الْمَالِ كَثِيـرَ الْعِيَالِ، لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ عَالَةً عَلَيْهِ، وَفَكَّرَ فِي أَنْ يَعْمَلَ لِيَعُولَ نَفْسَهُ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُسَاعِدُ عَمَّهُ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعْمَلَ رَاعِيًا لِغَنَمِ أَهْلِ مَكَّةَ مُقَابِلَ أَجْرٍ.

تَعَلَّـمَ الصَّبِيُّ الْهُدُوءَ، وَأَتَاحَـتْ لَهُ مِهْنَةُ رَاعِي الْغَنَمِ أَنْ يَتَأَمَّـلَ مَظَاهِرَ جَلَالِ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ فِي خَلْقِهِ، وَصَارَ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي هَدْأَةِ اللَّيْلِ وَظِلَالِ الْقَمَرِ وَنَسَـمَاتِ الْأَشْـجَارِ، وَتَعَلَّمَ الصَّبْرَ وَالْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ وَالرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالْعِنَايَةَ بِالضَّعِيفِ حَتَّى يَقْوَى، وَصَارَ يُلَقَّبُ فِي قُرَيْشٍ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ.

وَمَرَّتِ السُّـنُونَ، وَتَجَاوَزَ عُمْرُ مُحَمَّدٍ الثَّانِيَةَ عَشْـرَةَ، وَأَدْرَكَ أَبُو طَالِبٍ أَنَّ ابْنَ أَخِيهِ قَـدْ بَـدَأَ مَرْحَلَةَ الشَّـبَابِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَهُ يَتْرُكُ مِهْنَةَ الرَّعْـيِ الَّتِي لَا تُدِرُّ عَلَيْهِ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَأَنْ يُدَرِّبَهُ عَلَى التِّجَارَةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا سَادَةُ قُرَيْشٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ تُدِرُّ رِبْحًا كَثِيرًا.

وَحَدَثَ أَنْ سَـارَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَافِلَةِ تِجَارَةٍ إِلَى الشَّـامِ، فَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَسَارَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى بِـلَادِ الشَّـامِ، فَوَجَدَ أَبُو طَالِبٍ فِي ابْنِ أَخِيهِ الشَّـابِّ، الِابْنَ الْمُطِيـعَ، وَالْأَخَ الرَّفِيقَ، الَّـذِي يَتَصَـرَّفُ كَرَجُلٍ كَبِيرٍ.. لَهُ قَلْبٌ وَاسِـعٌ وَعَقْلٌ رَاجِحٌ، وَتَاجِرٌ مُسْـتَنِيرٌ، فَفَرِحَ بِهِ كَثِيرًا، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ مَرْكَزٌ مَرْمُوقٌ بَيْنَ الْقُرَشِيِّينَ لَا يُنَافِسُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

وَدَارَتِ الْأَيَّامُ عَلَى الصَّبِيِّ حَتَّى صَارَ شَـابًّا فِي الْخَامِسَـةِ وَالْعِشْـرِينَ، يَتَمَتَّعُ بِالْأَمَانَةِ وَالْخُلُقِ الرَّفِيعِ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، لَكِنَّ الْفَقْرَ ظَلَّ بَادِيًا فِي حَالِهِ وَحَالِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، يَأْبَى أَنْ يُفَارِقَهُمَا. وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ أَبُو طَالِبٍ لِمُحَمَّدٍ وَقَالَ لَهُ:

- يَـا ابْـنَ أَخِي..أَنَا رَجُلٌ لَا مَـالَ لِي، وَقَدِ اشْـتَدَّ الزَّمَـانُ عَلَيْنَا، وَجَرَتْ عَلَيْنَا سِـنُونَ صَعْبَةٌ، وَلَيْسَ لَنَا مَالٌ وَلَا تِجَارَةٌ، وَهَذِهِ عِيرُ قَوْمِكَ قَدْ آنَ أَوَانُ خُرُوجِهَا إِلَى الشَّامِ،

وَخَدِيجَـةُ بِنْـتُ خُوَيْلِدٍ تَبْعَثُ رِجَـالًا مِنْ قَوْمِكَ فِي عِيرِهَا، فَيَتَّجِـرُونَ لَهَا فِي مَالِهَا، وَيُصِيبُونَ مَنَافِعَ، فَلَوْ جِئْتَهَا فَوَضَعْتَ نَفْسَكَ فِي خِدْمَتِهَا لَأَسْرَعَتْ إِلَيْكَ وَفَضَّلَتْكَ عَلَى غَيْرِكَ؛ لِمَا يَبْلُغُهَا عَنْكَ مِنْ طَهَارَتِكَ.

رَدَّ الصَّادِقُ الْأَمِينُ بِأَنَّهُ مُوَافِقٌ عَلَى رَأْيِ عَمِّهِ، وَقَالَ لَهُ:

- لَعَلَّهَا تُرْسِلُ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ.

قَالَ أَبُو طَالِبٍ:

- إِنِّي أَخَافُ أَنْ تُوَلِّيَ غَيْرَكَ. لَكِنْ لَا تَقْلَقْ.. سَأَتَدَبَّرُ الْأَمْرَ.

وَذَهَبَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى خَدِيجَةَ يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ يَخْرُجَ ابْنُ أَخِيهِ فِي تِجَارَتِهَا، فَقَالَتْ لَهُ:

- مَا عَلِمْتُ قَطُّ أَنَّهُ يُرِيدُ ذَلِكَ. أَرْسِلْهُ إِلَيَّ.

عَادَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى مُحَمَّدٍ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى خَدِيجَةَ، وَحِينَ ذَهَبَ إِلَيْهَا قَالَتْ لَهُ:

- إِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ مَا بَلَغَنِي مِنْ صِدْقِ حَدِيثِكَ وَعِظَمِ أَمَانَتِكَ وَكَرَمِ أَخْلَاقِكَ، وَأَنَا أُعْطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِي رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ.

قَبِلَ مُحَمَّدٌ عَرْضَ خَدِيجَةَ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا شَاكِرًا لَهَا، وَحِينَ عَادَ وَلَقِيَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ ذَكَرَ لَهُ مَا دَارَ، فَقَالَ لَهُ:

- إِنَّ هَذَا لَرِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ.

4

كَانَتْ خَدِيجَةُ مِنْ خِيرَةِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ شَرَفًا وَأَكْثَرِهِنَّ مَالًا وَأَحْسَنِهِنَّ جَمَالًا، وَكَانَتْ تُدْعَى بِسَيِّدَةِ قُرَيْشٍ وَالطَّاهِرَةِ. وَقَدْ خَطَبَهَا عُظَمَاءُ قُرَيْشٍ وَعَرَضُوا عَلَيْهَا أَمْوَالَهُمْ، لَكِنَّهَا رَفَضَتْهُمْ جَمِيعًا فِي انْتِظَارِ مَنْ يَرِقُّ لَهُ قَلْبُهَا، وَعَاشَتْ تُمَارِسُ تِجَارَتَهَا فِي انْتِظَارِ هَذَا الْحُلْمِ.

وَسَافَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى الشَّامِ فِي قَافِلَةٍ لِلتِّجَارَةِ بِمَالِ خَدِيجَةَ، يُسَاعِدُهُ خَادِمُهَا مَيْسَرَةُ، وَذَهَبَ إِلَى أَسْوَاقِ الشَّامِ.. بَاعَ وَاشْتَرَى، وَعَادَ مِنْ رِحْلَتِهِ وَقَدْ حَقَّقَ لَهَا رِبْحًا أَعْلَى مِمَّا كَانَ يُحَقِّقُهُ غَيْرُهُ بِكَثِيرٍ. وَحَكَى لَهَا مَيْسَرَةُ عَمَّا رَآهُ مِنْ أَخْلَاقِ مُحَمَّدٍ الْكَرِيمَةِ، وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَقَبُولِهِ عِنْدَ النَّاسِ، فَاتَّجَهَ قَلْبُهَا بِكُلِّ عَوَاطِفِهِ نَحْوَ مُحَمَّدٍ، وَتَعَلَّقَ بِشَخْصِهِ الْكَرِيمِ.

رَأَتْ خَدِيجَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ نَشَأَ فِي قَبِيلَةٍ مِنْ أَشْرَفِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَفِي بَيْتٍ مِنْ أَفْضَلِ بُيُوتِ قُرَيْشٍ، وَنَشَأَ يَتِيمًا لَمْ يَعْرِفِ الْأَبَ، وَلَمْ يَنْهَلْ مِنْ حَنَانِ الْأُمِّ، وَلَمْ يَنْعَمْ بِحَيَاةِ الْجَدِّ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِالرَّخَاءِ وَالرَّفَاهِيَةِ عِنْدَ الْعَمِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ، وَالْأَمِينُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْخِيَانَةَ، وَالْوَفِيُّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْغَدْرَ، وَالْجَمِيعُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَلَا يُنْكِرُهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّهِمَهُ بِهِ عَدُوٌّ.

صَدَّقَ عَقْلُ خَدِيجَةَ قَلْبَهَا، فَلَمْ تَجِدْ عَيْبًا وَلَا بُغْضًا وَلَا كَرَاهِيَةً فِي أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِ مَنْ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ مِنْهَا.

كَانَ مُحَمَّدٌ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي سَتُوَاصِلُ مَعَهُ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ وَالْجِهَادِ وَالْعَمَلِ، وَتَصْبِرُ مَعَهُ عَلَى مَتَاعِبِهِ وَمَصَاعِبِهِ، لَكِنَّ فَقْرَهُ وَضِيقَ حَالِهِ قَدْ جَعَلَاهُ لَا يُفَكِّرُ مُطْلَقًا فِي هَذَا الْأَمْرِ.

وَحِينَ أَتَتْهُ مَنْ تُبَلِّغُهُ رَغْبَةَ خَدِيجَةَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُ، كَانَ رَأْيُهُ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ تَصْلُحُ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ سِوَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، لِمَا تَمْلِكُ مِنْ عَقْلٍ رَاجِحٍ يَزِنُ الْأُمُورَ. لَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْمَالَ الَّذِي يَدْفَعُهُ مَهْرًا لَهَا، فَيُفَاجَأُ بِأَنَّهَا تُعْفِيهِ حَتَّى مِنْ هَذَا الْمَهْرِ، فَهِيَ لَا تُرِيدُ إِلَّا هُوَ.

وَافَقَ الْكَرِيمُ عَلَى زَوَاجِهِ مِنْ خَدِيجَةَ، وَذَهَبَ لِيُخْبِرَ أَعْمَامَهُ، فَخَطَبُوهَا لَهُ مِنْ وَلِيِّهَا، فَلَمْ يَجِدْ فِي قُرَيْشٍ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُ.. فَقَبِلَ زَوَاجَهُمَا.

وَتَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْهَاشِمِيُّ، مِنْ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ طَاهِرَةِ مَكَّةَ وَسَيِّدَةِ نِسَائِهَا، وَانْتَقَلَ لِلْحَيَاةِ فِي بَيْتِهَا، وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ حَاضِنَتَهُ أُمَّ أَيْمَنَ... الَّتِي رَافَقَتْهُ مُنْذُ مِيلَادِهِ وَعَاشَتْ مَعَهُ أَحْزَانَ الْحَيَاةِ.

تَبَدَّلَتِ الْحَالُ بِمُحَمَّدٍ مِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى، وَسَافَرَ فِي قَوَافِلَ لِلتِّجَارَةِ بِمَالِ خَدِيجَةَ وَرَبِحَ أَمْوَالًا وَفِيرَةً، وَلَمْ يَشْعُرْ قَطُّ بِأَنَّ الْمَالَ مَالُ زَوْجَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَّجِرُ لَهَا فِيهِ، فَقَدْ أَكَّدَتْ لَهُ أَنَّ الْمَالَ مَالُهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ.

وَتَنَعَّمَ الرَّجُلُ بِنِعْمَةِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ السَّعِيدَةِ، وَنَهِلَ مِنْ نَبْعِ حَنَانِ الْمَرْأَةِ وَالزَّوْجَةِ، مُعَوِّضًا بِهَا حِرْمَانَهُ مِنْ حَنَانِ الْأُمِّ، وَرَوَى نَفْسَهُ الْعَطْشَى إِلَى حَدِّ الظَّمَإِ، وَسَعِدَ بِأُبُوَّةِ أَبْنَاءٍ مَلَأُوا عَلَيْهِ الدُّنْيَا بَهْجَةً وَسَعَادَةً. وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ. فَمَاذَا يُرِيدُ الْمَرْءُ مُكَافَأَةً مِنْ رَبِّهِ عَنْ حِرْمَانٍ وَآلَامِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ غَيْرَ ذَلِكَ؟

وَمَرَّتْ أَيَّامُ مُحَمَّدٍ فِي قُرَيْشٍ يَنْعَمُ بِحُبٍّ وَاحْتِرَامِ مَنْ يَعْرِفُهُ أَوْ يَسْمَعُ بِهِ، فَصَارَ الصَّادِقَ الْأَمِينَ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا، وَصَارُوا لَا يَطْمَئِنُّونَ إِلَّا إِلَى رَأْيِهِ، وَلَا يُصَدِّقُونَ إِلَّا قَوْلَهُ، وَلَا يُبَارِكُونَ إِلَّا فِعْلَهُ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَزْدَادُ قَلْبُهُ رِقَّةً وَعُذُوبَةً وَرَحْمَةً.

كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ حِينَ قَرَّرَ أَشْرَافُ مَكَّةَ وَسَادَتُهَا أَنْ يُعِيدُوا بِنَاءَ الكَعْبَةِ، بَعْدَ أَنْ هَدَمَ السَّيْلُ جُدْرَانَهَا، وَاحْتَرَقَتْ أَسْتَارُهَا بِشَرَارَةٍ مِنْ حَرِيقٍ. فَهَدَمُوهَا وَتَعَاوَنُوا جَمِيعًا فِي نَقْلِ الْحِجَارَةِ مِنَ الْجِبَالِ إِلَيْهَا، وَشَارَكَ مُحَمَّدٌ وَعَمُّهُ الْعَبَّاسُ فِي نَقْلِ الْحِجَارَةِ وَالْبِنَاءِ، حَتَّى ارْتَفَعَ الْجِدَارُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ.

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ حَاضِرًا فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَأَرَادَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ أَنْ تَنَالَ شَرَفَ رَفْعِ الْحَجَرِ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَكَادُوا يَتَقَاتَلُونَ بِالسُّيُوفِ لَوْلَا أَنَّ أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ، وَكَانَ أَكْبَرَ النَّاسِ سِنًّا.. قَالَ لَهُمْ:

- يَا قَوْمُ، إِنَّمَا أَرَدْنَا الْبِرَّ وَلَمْ نُرِدِ الشَّرَّ، فَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَافَسُوا، فَإِنَّكُمْ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ تَشَتَّتَتْ أُمُورُكُمْ، وَطَمِعَ فِيكُمْ غَيْرُكُمْ، لَكِنْ.. حَكِّمُوا بَيْنَكُمْ أَوَّلَ مَنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا.

وَافَقَ الرِّجَالُ عَلَى رَأْيِ أَبِي أُمَيَّةَ، وَقَالُوا:

- رَضِينَا وَسَلَّمْنَا.

وَتَعَلَّقَتْ عُيُونُهُمْ بِالطَّرِيقِ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الْوَقْتُ، وَإِذَا بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ.. وَحِينَ رَأَوْهُ صَاحُوا قَائِلِينَ:

- هَذَا هُوَ الْأَمِينُ.. قَدْ رَضِينَا بِحُكْمِهِ.

سَأَلَهُمْ مُحَمَّدٌ عَمَّا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.. وَحِينَ أَخْبَرُوهُ، قَالَ لَهُمْ:

- أُرِيدُ ثَوْبًا.

نَاوَلَهُ أَحَدُهُمْ ثَوْبًا.. فَفَرَشَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَرَفَعَ الْحَجَرَ بِيَدَيْهِ وَوَضَعَهُ فِي مُنْتَصَفِ الثَّوْبِ، وَقَالَ لَهُمْ:

- لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوا جَمِيعًا.

فَعَلَ سَـادَةُ قُرَيْشٍ وَأَشْـرَافُهَا مَا أَشَـارَ بِهِ مُحَمَّدٌ، وَنَقَلُوا الْحَجَرَ إِلَى جِوَارِ جِدَارِ الْكَعْبَةِ، وَهُنَاكَ.. رَفَعَهُ مِنَ الثَّوْبِ وَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ بِالْجِدَارِ، وَوَاصَلُوا الْبِنَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هُدُوءٍ وَرِضًا.

وَلَـمْ يَمْضِ عَامٌ حَتَّى أَجْدَبَتِ الْوُدْيَـانُ، وَتَوَقَّفَتِ الْقَوَافِلُ إِلَى الشَّـمَالِ وَالْجَنُوبِ،

وَقَلَّ الطَّعَامُ، وَتَهَالَكَ النَّاسُ مِنَ الْحَاجَةِ، فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى حَالِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يُطْعِمُ الطَّيْرَ فَوْقَ الْجِبَالِ رَغْمَ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى إِطْعَامِ عِيَالِهِ، فَوَجَدَهُ غَيْرَ قَادِرٍ حَتَّى عَلَى إِطْعَامِ عِيَالِهِ، فَقَرَّرَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ الْعِبْءَ وَذَهَبَ إِلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ:

- إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى، فَانْطَلِقْ بِنَا فَلْنُخَفِّفْ مِنْ عِيَالِهِ.

رَضِيَ الْعَبَّاسُ عَمَّا قَالَهُ ابْنُ أَخِيهِ وَقَالَ:

- لَكَ مَا تُرِيدُ يَا ابْنَ أَخِي.. هَيَّا بِنَا إِلَيْهِ.

انْطَلَقَ الرَّجُلَانِ وَرَاحَا إِلَى دَارِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَا لَهُ:

- إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ.

ارْتَاحَتْ نَفْسُ أَبِي طَالِبٍ لِمَا سَمِعَ، فَقَدْ كَانَ عِنْدَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ هُمْ: طَالِبٌ، وَعَقِيلٌ، وَجَعْفَرٌ، وَعَلِيٌّ، وَلَدَيْهِ أَيْضًا بِنْتَانِ هُمَا: أُمُّ هَانِئٍ، وَجُمَانَةُ، فَتَمَسَّكَ أَبُو طَالِبٍ بِعَقِيلٍ، وَتَرَكَ لِلْعَبَّاسِ وَمُحَمَّدٍ حُرِّيَّةَ الِاخْتِيَارِ بَيْنَ طَالِبٍ وَجَعْفَرٍ وَعَلِيٍّ، أَمَّا الْبَنَاتُ فَلَا خُرُوجَ لَهُنَّ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِنَّ.

اخْتَارَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا، وَأَخَذَ مُحَمَّدٌ عَلِيًّا أَصْغَرَ الْأَبْنَاءِ، وَكَانَ عُمْرُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سِتَّ سَنَوَاتٍ. وَعَادَ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَى دَارِهِ، وَضَمَّ مَنِ اتَّخَذَهُ إِلَى عِيَالِهِ، وَبِذَلِكَ اسْتَطَاعَ أَبُو طَالِبٍ أَنْ يُطْعِمَ مَا تَبَقَّى فِي دَارِهِ مِنْ عِيَالِهِ.

5

وَاقْتَرَبَ عُمْرُ مُحَمَّدٍ مِنَ الْأَرْبَعِينَ، وَصَارَ لَا يَتَحَمَّلُ ضَجِيجَ الْحَيَاةِ فِي مَكَّةَ حِينَ تَأْتِي وُفُودُ الْعَرَبِ لِلْحَجِّ، وَاعْتَادَ الْقُرَشِيُّونَ أَنْ يَرَوْهُ وَهُوَ يَنْسَحِبُ مِنَ الزِّحَامِ، وَيَذْهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ، يَجْلِسُ فِيهِ وَحِيدًا.. يَتَأَمَّلُ خَلْقَ اللهِ حَتَّى يَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِهِ بَعِيدًا عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ.

وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ. وَكَانَ قَدِ اعْتَادَ الِاعْتِكَافَ فِي غَارِ حِرَاءٍ طَوَالَ شَهْرِ رَمَضَانَ.. يَأْخُذُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الزَّادِ، وَلَا يَعُودُ إِلَى دَارِهِ إِلَّا لِيَتَزَوَّدَ ثَانِيَةً.

وَفِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ وَمَعَ نُورِ الْفَجْرِ الْوَلِيدِ.. الَّذِي جَاءَ مُبَشِّرًا بِنَهَارٍ جَدِيدٍ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي خَلْوَتِهِ بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، فَإِذَا بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْغَارَ وَيَقُولُ لَهُ:

- اقْرَأْ.

ارْتَعَدَ جَسَدُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الَّذِي اقْتَحَمَ خَلْوَتَهُ وَيَأْمُرُهُ بِشَيْءٍ لَا يَعْرِفُهُ؛ فَهُوَ أُمِّيٌّ يَجْهَلُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَلَمْ يَتْلُ كِتَابًا وَلَمْ يَخُطَّ حَرْفًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، فَمَاذَا يَقْرَأُ وَكَيْفَ يَقْرَأُ؟ فَحَاوَلَ أَنْ يَتَمَاسَكَ وَقَالَ:

- مَا أَنَا بِقَارِئٍ.

ضَمَّ جِبْرِيلُ مُحَمَّدًا إِلَى صَدْرِهِ بِشِدَّةٍ، وَهُوَ يَأْمُرُهُ وَيَقُولُ لَهُ:

- اقْرَأْ.

وَيَرُدُّ مُحَمَّدٌ صَادِقًا وَيَقُولُ:

- مَا أَنَا بِقَارِئٍ.

وَيَضُمُّهُ جِبْرِيلُ مَرَّةً ثَانِيَةً إِلَى صَدْرِهِ بِعُنْفٍ، وَيَقُولُ بِإِصْرَارٍ:

- اقْرَأْ.

لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مُحَمَّدٍ إِلَّا رَدٌّ وَاحِدٌ، هُوَ صَادِقٌ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ:

- مَا أَنَا بِقَارِئٍ.

فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ ضَمَّهُ جِبْرِيلُ وَقَالَ لَهُ:

- ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ

﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ (سورة العلق: 1ـ 5).

أَطْلَقَ الْمَلَكُ مُحَمَّدًا، فَأَسْرَعَ هَارِبًا مِنَ الْغَارِ، وَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ خَائِفًا يَرْتَعِدُ، وَظَلَّتْ كَلِمَاتُ الْمَلَكِ تَتَرَدَّدُ فِي قَلْبِهِ، وَتَهُزُّ كِيَانَهُ. حَتَّى دَخَلَ إِلَى دَارِهِ شَاحِبَ اللَّوْنِ يَرْتَعِدُ جَسَدُهُ وَيَتَصَبَّبُ عَرَقًا، فَاسْتَقْبَلَتْهُ الزَّوْجَةُ الْحَبِيبَةُ الْحَانِيَةُ، وَسَاعَدَتْهُ فِي رِقَّةٍ وَحَنَانٍ حَتَّى أَرْقَدَتْهُ فِي فِرَاشِهِ. وَبَيْنَمَا هِيَ تُدَثِّرُهُ وَتَلُفُّ جَسَدَهُ الطَّاهِرَ بِالْغِطَاءِ، حَكَى لَهَا مَا حَدَثَ، وَأَلْقَى مَا سَمِعَهُ مِنْ كَلِمَاتٍ أَمَامَهَا، وَأَخْبَرَهَا بِخَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الَّذِي ضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ بِقُوَّةٍ أَتَاهُ مِنَ الْجِنِّ، وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ.

لَمْ تَفْزَعْ خَدِيجَةُ مِمَّا سَمِعَتْ، وَاسْتَقْبَلَتِ الْأَمْرَ بِهُدُوءٍ وَسَكِينَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ مُوقِنَةً مِنْ كَمَالِ أَخْلَاقِ زَوْجِهَا وَمَحَاسِنِهَا، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ رَجُلًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يُخْزِيهِ اللهُ أَبَدًا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَهُ الشَّيَاطِينُ أَوِ الْجَانُّ، فَرَاحَتْ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ، وَتَقُولُ لَهُ بِكُلِّ ثِقَةٍ:

- لَنْ يُخْزِيَكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ.

ظَلَّتْ خَدِيجَةُ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِ زَوْجِهَا الَّذِي صَارَ نَبِيًّا، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الْخَوْفُ وَالرَّوْعُ مِمَّا حَدَثَ، وَنَسِيَ أَمْرَ ذَلِكَ الَّذِي ظَنَّهُ شَيْطَانًا، وَبَدَأَ يُرَدِّدُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قَالَهَا لَهُ وَاسْتَقَرَّتْ فِي قَلْبِهِ، وَأَخَذَ يَتَفَكَّرُ فِيهَا، وَيَقْرَأُ بِاسْمِ اللهِ الَّذِي خَلَقَ.

إِنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الَّذِي نَادَى بِهِ جَدُّهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَلَمْ يَعْبُدْ سِوَاهُ، لَكِنَّ الْكَلِمَاتِ تُخْبِرُهُ بِصِفَةٍ فِي اللهِ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا، وَهِيَ أَنَّهُ الْخَالِقُ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. تَسَاءَلَ عَقْلُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ قُدْرَةِ هَذَا الرَّبِّ الَّتِي تَجْعَلُهُ يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ بِمَا فِيهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ مِنْ هَذِهِ الْعَلَقَةِ الَّتِي تَكَادُ لَا تُرَى، وَيَضَعُ فِيهِ هَذَا الْعَقْلَ الَّذِي يُفَكِّرُ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْكَلِمَاتِ تَأْمُرُهُ بِأَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّهِ الْأَكْرَمِ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

صَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي شَوْقٍ لِأَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يُرِيدُ اللهُ لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، لَكِنَّ ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ لِيُعَلِّمَهُ احْتَجَبَ عَنْهُ وَلَمْ يَعُدْ يَأْتِيهِ، فَعَادَتْ إِلَيْهِ الظُّنُونُ بِأَنَّ الَّذِي جَاءَهُ فِي الْغَارِ كَانَ آتِيًا لَهُ مِنْ عَالَمِ الْجَانِّ.

ضَاقَتْ نَفْسُ الرَّسُولِ ﷺ وَأُصِيبَ بِحَالَةٍ مِنَ الْيَأْسِ وَالْمَرَارَةِ لَيْسَ لَهَا حُدُودٌ، وَصَارَ يَسِيرُ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَوُدْيَانِهَا لَا يَدْرِي مَا الَّذِي أَصَابَهُ، حَزِينٌ عَلَى نَفْسِهِ.. أَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الْعُمْرِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مِثَالًا لِلصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ يَأْتِيهِ مَسٌّ مِنَ الشَّيْطَانِ؟!

وَبَعْدَ أَنْ طَالَ بِهِ الشَّوْقُ، لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا حَدَثَ لَهُ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَمْشِي فِي طَرِيقِهِ عَائِدًا مِنْ غَارِ حِرَاءٍ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ صَوْتًا يُنَادِيهِ وَيَقُولُ لَهُ:

- يَا مُحَمَّدُ.

نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَهُ وَخَلْفَهُ وَعَنْ شِمَالِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ يَبْحَثُ عَمَّنْ يُنَادِيهِ، فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، وَعِنْدَمَا كَادَ يُوَاصِلُ سَيْرَهُ سَمِعَ النِّدَاءَ مَرَّةً ثَانِيَةً.. أَدْرَكَ أَنَّهُ آتٍ مِنْ أَعْلَى، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَى الَّذِي أَتَاهُ فِي الْغَارِ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَيَقُولُ لَهُ:

- يَا مُحَمَّدُ، أَنَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ.

وَرَغْمَ شَوْقِهِ وَلَهْفَتِهِ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا حَدَثَ لَهُ، فَقَدْ خَافَ وَارْتَعَدَ وَأَسْرَعَ عَائِدًا إِلَى دَارِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- دَثِّرُونِي.. دَثِّرُونِي.

اسْتَقْبَلَتْهُ خَدِيجَةُ بِرُوحِ الْأُمِّ الْحَانِيَةِ عَلَى وَلَدِهَا.. قَادَتْهُ إِلَى فِرَاشِهِ وَلَفَّتْ جَسَدَهُ بِمَا

لَدَيْهَا مِنْ أَغْطِيَةٍ، وَهِيَ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ. وَمَا إِنْ هَدَأَ ﷺ حَتَّى أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُبَلِّغَهُ أَمْرَ اللهِ الَّذِي يَقُولُ لَهُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾.

(سورة المدثر: 1ـ 5)

كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ هِيَ الْأَمْرَ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، فَقَدْ صَارَ مُحَمَّدٌ رَسُولًا مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمِلِ الرِّسَالَةَ، وَلْيُوَجِّهِ النَّاسَ، وَلْيَأْنَسْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَخَفْ مِنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ، فَمَا سَيَنْقُلُهُ لَهُ مِنَ اللهِ هُوَ فَحْوَى رِسَالَتِهِ وَمَدَدُ دَعْوَتِهِ.

قَامَ الْمُدَّثِّرُ مِنْ رَقْدَتِهِ، قَدْ أَتَاهُ أَمْرُ اللهِ فَلَا وَقْتَ لِلنَّوْمِ أَوِ الرَّاحَةِ، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ، إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْحَقِّ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَالَّذِي لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ وَاسِطَةٌ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى نَبْذِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ.

كَانَتْ خَدِيجَةُ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ تُجَادِلْهُ فَهِيَ تَعْرِفُ صِفَاتِهِ، وَتَعْرِفُ أَنَّهُ الْوَحِيدُ الْمُؤَهَّلُ لِحَمْلِ مِثْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، فَمَنْ يَحْمِلُهَا إِلَّا مُحَمَّدٌ الَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ لِهَذِهِ اللَّحَظَاتِ مُنْذُ أَنْ خَلَقَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ؟

6

كَانَ أَوَّلُ شَـيْءٍ فَرَضَهُ اللهُ مِنَ الشَّـرَائِعِ هُوَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ؛ حَيْثُ الْتَقَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّـلَامُ بِالصَّـادِقِ الْأَمِينِ ذَاتَ لَيْلَـةٍ فِي وَادٍ خَارِجَ مَكَّـةَ لِيُعَلِّمَهُ كَيْفَ يُصَـلِّي. وَلِأَنَّهُ لَا صَلَاةَ بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا بُدَّ لِلطُّهُورِ مِنْ مَاءٍ؛ فَقَدْ ضَرَبَ جِبْرِيلُ الْأَرْضَ بِعَقِبِهِ فَانْفَجَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ، وَتَوَضَّأَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرَّسُولُ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ كَيْفِيَّةَ الطُّهُورِ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ كَمَا رَأَى جِبْرِيلَ يَتَوَضَّأُ.

ثُمَّ قَامَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى بِهِ، وَصَلَّى النَّبِيُّ كَمَا رَأَى جِبْرِيلَ يُصَلِّي.

وَجَـاءَ الرَّسُـولُ ﷺ إِلَى خَدِيجَةَ فَتَوَضَّـأَ أَمَامَهَا لِيُعَلِّمَهَا كَمَا تَعَلَّـمَ هُوَ مِنْ جِبْرِيلَ، فَتَوَضَّأَتْ كَمَا تَوَضَّأَ الرَّسُولُ، ثُمَّ صَلَّى بِهَا كَمَا صَلَّى بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ.. كَانَ الرَّسُـولُ الْكَرِيمُ ﷺ يُصَلِّي بِزَوْجَتِـهِ، فَرَآهُمَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَ عُمْرُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَشْـرَ سِـنِينَ، فَسَـأَلَهُمَا عَمَّا يَفْعَلَانِ، فَأَخْبَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنَّهُمَـا يُصَلِّيَانِ لِلهِ الْوَاحِدِ الْأَحَـدِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ اللهَ قَدْ كَلَّفَهُ بِأَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَنَبْذِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

تَعَلَّـقَ قَلْـبُ عَلِيٍّ الصَّبِيِّ بِمَا سَـمِعَ مِنْ كَلِمَـاتٍ، وَحِينَ خَيَّرَهُ الرَّسُـولُ ﷺ بَيْنَ أَنْ يُؤْمِـنَ مِثْلَهُمَـا أَوْ يَكْتُمَ سِـرَّ مَـا رَآهُ وَلَا يُطْلِعَ عَلَيْـهِ أَحَدًا، اخْتَارَ الصَّبِـيُّ طَرِيقَ النُّورِ، وَأَسْلَمَ لِلهِ الْوَاحِدِ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

لَـمْ يَعُـدْ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ أَحَدٌ لَمْ يُؤْمِـنْ، فَقَدْ آمَنَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ خَادِمُ الرَّسُـولِ ﷺ، وَآمَنَتْ بَنَاتُهُ زَيْنَبُ وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَرُقَيَّةُ وَفَاطِمَةُ، وَصَارَ آلُ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ أُسْرَةٍ تُسْلِمُ

لِلهِ، وَصَارَ الْبَيْتُ أَوَّلَ مَكَانٍ يُتْلَى فِيهِ وَحْيُ السَّمَاءِ بَعْدَ غَارِ حِرَاءٍ، وَأَوَّلَ بَيْتٍ أُقِيمَتْ فِيهِ الصَّلَاةُ.

بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ يُفَكِّرُ فِي الْخُرُوجِ بِالدَّعْوَةِ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى خَارِجِهِ، وَرَاحَ يُفَكِّرُ كَيْفَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَوَارَثُوا عِبَادَتَهَا. تَأَكَّدَ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا رِسَالَتَهُ، وَسَيُقَاتِلُونَ مِنْ أَجْلِ مَا يَعْتَقِدُونَ. وَكَانَ ﷺ لَمْ يُؤْمَرْ بَعْدُ بِالْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ، فَقَرَّرَ ﷺ أَنْ يَبْدَأَ الدَّعْوَةَ سِرًّا، وَيَبْدَأَ بِمَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ.

كَانَ أَبُو بَكْرِ بْنُ قُحَافَةَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَهُوَ صَدِيقُ طُفُولَتِهِ وَصِبَاهُ الَّذِي لَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ فِي حَيَاتِهِ، وَهُوَ رَجُلٌ ذُو خُلُقٍ صَارَ مِنْ كِبَارِ تُجَّارِ مَكَّةَ، يَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ صَفْوَةُ الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ وَرِجَالُ الْمَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْمَصَالِحِ، فَيَجِدُونَ عِنْدَهُ عِلْمًا وَثَقَافَةً لَا يَجِدُونَهَا عِنْدَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، حَتَّى بُسَطَاءُ النَّاسِ كَانُوا يَأْتُونَ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَأْنَسُ بِضُيُوفِهِ وَيَفْرَحُ بِهِمْ.

أَسَرَّ الرَّسُولُ ﷺ فِي أُذُنِ أَبِي بَكْرٍ بِمَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ وَنَبْذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَشَعَرَ أَبُو بَكْرٍ بِأَنَّ هَمًّا ثَقِيلًا قَدِ انْزَاحَ مِنْ فَوْقِ قَلْبِهِ؛ فَهُوَ لَمْ يُصَدِّقْ يَوْمًا أَنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ، وَانْشَرَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ:

- وَاللهِ مَا جَرَّبْتُ عَلَيْكَ كَذِبًا، وَإِنَّكَ لَخَلِيقٌ بِالرِّسَالَةِ لِعِظَمِ أَمَانَتِكَ، وَصِلَتِكَ لِرَحِمِكَ، وَحُسْنِ فِعَالِكَ. مُدَّ يَدَكَ فَإِنِّي مُبَايِعُكَ.

وَأَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ، أَحَدُ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ وَرِجَالِهَا الْمَعْدُودِينَ مَالًا وَجَاهًا وَسَخَاءً. وَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ صُحْبَةُ الرَّجُلَيْنِ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسِ الطُّفُولَةِ وَالصِّبَا وَالشَّبَابِ وَكَرَاهِيَةِ

الْأَصْنَامِ، صَارَتِ الصُّحْبَةُ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، وَجَمَعَتْهُمَا الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَتَعَاوَنَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ سِرًّا.

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ إِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ d ، أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ خَمْسَةٌ مِنْ صَفْوَةِ الْمُجْتَمَعِ الْقُرَشِيِّ، وَهُمْ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَطَلْحَةُ ابْنُ عُبَيْدِ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ؛ حَيْثُ صَحِبَهُمُ الصِّدِّيقُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْآخَرِ لِيُعْلِنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَتَلَقَّى تَعَالِيمَ دِينِهِ الْجَدِيدِ مِنْهُ.

وَمَضَتِ الدَّعْوَةُ فِي سِرِّيَّةٍ، لَا يُخَاطِبُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَّا مَنْ يَثِقُ بِهِ وَيَأْمَنُ شَرَّهُ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَكُونُ دَعْمًا لِلْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي سَتَسْعَى إِلَى إِقَامَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى دِينِ رَبِّ الْعِبَادِ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْرِفُ تَمَامًا أَنَّهُ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يُؤْمَرُ فِيهِ بِالدَّعْوَةِ جَهْرًا وَعَلَانِيَةً، فَكَانَ لَا بُدَّ لِطَلَائِعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافِهَا؛ لِيَكُونُوا حُمَاةً لِلدَّعْوَةِ مِنْ قَسْوَةِ الْمُشْرِكِينَ وَغِلْظَةِ قُلُوبِهِمْ.

وَسَارَتِ الدَّعْوَةُ بَطِيئَةً وَحَذِرَةً، وَآمَنَ بِالرَّسُولِ ﷺ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ تُجَّارِ مَكَّةَ وَأَشْرَافِهَا، مِمَّنْ عَرَفَتْ نُفُوسُهُمُ الطُّهْرَ وَالنَّزَاهَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَآمَنَ عَدَدٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْعَبِيدِ، اسْتَقْبَلَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، فَصَارُوا حَرِيصِينَ عَلَى إِسْلَامِهِمْ.. وَأَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِتَحَمُّلِ الْأَذَى الَّذِي سَيَتَعَرَّضُونَ لَهُ مِنْ سَادَتِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ.

صَارَ السَّادَةُ وَالْعَبِيدُ إِخْوَةً فِي ظِلِّ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي آمَنُوا بِهَا، وَهِيَ إِيمَانُهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي شَرَحَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لَهُ.. يَتَسَلَّلُونَ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ، يُصَلُّونَ صَلَاتَهُمْ بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ.

وَفِي اللَّيْلِ، يَتَحَوَّلُونَ جَمِيعًا إِلَى طُلَّابِ عِلْمٍ وَدِينٍ فِي مَدْرَسَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الَّتِي اخْتَارَهَا ﷺ لِتَكُونَ مَقَرًّا لَهُمْ بَعِيدًا عَنِ الْأَعْيُنِ، حَيْثُ يُعَلِّمُهُمْ فِيهَا أُصُولَ دِينِهِمُ الْجَدِيدِ وَشَرَائِعَهُ.

وَكَانَ رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ a يَنْزِلُ بِالْآيَاتِ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتْلُوهَا لِلصَّحَابَةِ فَتَسْكُنُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَتَفَاعَلُ مَعَ أَرْوَاحِهِمْ، فَيَتَحَوَّلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِلَى إِنْسَانٍ جَدِيدٍ بِقِيَمِهِ وَمَشَاعِرِهِ، وَأَهْدَافِهِ، وَسُلُوكِهِ، وَأَحْلَامِهِ، وَإِنْ كَانُوا جَمِيعًا يَحْلُمُونَ حُلْمًا وَاحِدًا، هُوَ نَجَاحُ الدَّعْوَةِ وَوُصُولُهَا إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ.

وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ ثَلَاثٌ وَالرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْخَالِقِ وَحْدَهُ فِي سِرِّيَّةٍ وَحَذَرٍ. وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَهُ جِبْرِيلُ a يَحْمِلُ أَمْرَ اللهِ الَّذِي يَقُولُ:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

(سورة الشعراء: 214ـ 215)

7

امْتَثَلَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَصَعِدَ إِلَى جَبَلِ الصَّفَا، وَنَادَى وَقَالَ:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.

وَصَلَ صَوْتُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى كُلِّ بُيُوتِ مَكَّةَ، فَقَالُوا:

- إِنَّ مُحَمَّدًا عَلَى الصَّفَا يَهْتِفُ بِنَا.

فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ، وَهُمْ يَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَا الَّذِي جَرَى؟ وَحِينَ الْتَفُّوا حَوْلَهُ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، قَالَ لَهُمُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ:

- أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ.. تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟

قَالُوا: نَعَمْ نُصَدِّقُكَ.. مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

فَقَالَ ﷺ : إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

وَرَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يُعَدِّدُ بُطُونَ قُرَيْشٍ كُلَّهَا، وَيُنَادِي عَلَيْهِمْ بَطْنًا بَطْنًا وَقَالَ:

- إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنْفَعَةً، وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

ثُمَّ رَاحَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ لَهُمْ جَمِيعًا:

- أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

صَمَتَ النَّاسُ جَمِيعًا لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَقُولُونَ لِلْهَادِي النَّذِيرِ، وَقَدْ أَقَرُّوا مُنْذُ لَحَظَاتٍ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ إِلَّا صَادِقًا لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَفَجْأَةً قَطَعَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ الصَّمْتَ وَقَالَ غَاضِبًا:

ـ تَبًّا لَكَ سَائِرَ هَذَا الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!

فُوجِئَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَقُولَةِ عَمِّهِ وَلَمْ يَدْرِ مَاذَا يَقُولُ لَهُ، أَوْ كَيْفَ يَرُدُّ عَلَيْهِ، وَيَأْتِيهِ الرَّدُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَيْهِ، فَقَالَ مَا قَالَهُ اللهُ:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ (سورة المسد: 1ـ 3).

انْصَرَفَ النَّاسُ فِي صَمْتٍ وَذُهُولٍ، حَتَّى إِنَّ أَبَا لَهَبٍ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، وَظَلَّتْ كَلِمَاتُ الرَّسُولِ ﷺ تُدَوِّي بَيْنَ جَنَبَاتِ أَوْدِيَةِ مَكَّةَ.

وَيَأْمُرُ اللهُ رَسُولَهُ وَيَقُولُ لَهُ:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ ﴾ (سورة الحجر: 94).

وَكَانَ هَـذَا تَوْجِيهًا مِنَ اللهِ إِلَى رَسُـولِهِ، بِأَنْ يُنْذِرَ النَّـاسَ وَيَدْعُوَهُمْ جَهَارًا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا. يَدْعُو مَنْ يَلْتَقِي بِهِ مِنَ النَّاسِ حُرًّا كَانَ أَوْ عَبْدًا، غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، قَوِيًّا أَوْ ضَعِيفًا. وَصَارَ يُصَلِّي فِي حَرَمِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ وَيَتْلُو مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى مَسْمَعٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَاقْتَرَبَ مَوْسِـمُ الْحَجِّ، وَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِدِينِهِ وَقُرْآنِهِ فَيَتَّبِعُوهُ، وَاجْتَمَعُوا عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ يُفَكِّرُونَ فِي شَيْءٍ يَقُولُونَهُ لَهُمْ حَتَّى يُصَدِّقُوهُمْ، فَقَالَ لَهُمُ الْوَلِيدُ:

ـ اتَّفِقُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

قَالُوا: قُلْ لَنَا أَنْتَ مَا نَقُولُ.

قَالَ: بَلْ قُولُوا أَنْتُمْ وَأَنَا أَسْمَعُ.

قَالُوا: نَقُولُ كَاهِنٌ.. أَوْ شَاعِرٌ.. أَوْ مَجْنُونٌ.. أَوْ سَاحِرٌ.

قَـالَ الْوَلِيـدُ بْنُ الْمُغِيـرَةِ: لَا وَاللهِ مَا هُوَ كَذَلِـكَ، وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَـلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

ثُمَّ فَكَّرَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ طَوِيلًا، ثُمَّ نَطَقَ وَقَالَ:

- إِنَّ أَقْرَبَ شَـيْءٍ هُوَ أَنْ تَقُولُوا سَـاحِرٌ.. جَاءَ بِقَوْلٍ سِحْرٍ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجَتِهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ.

وَتَفَـرَّقَ الْمُشْـرِكُونَ مِنْ حَوْلِ الْوَلِيـدِ وَقَدْ حَفِظُوا مَا قَالَ، وَجَاءَ الْحَجِيجُ فَانْتَشَـرُوا بَيْنَهُمْ يُحَذِّرُونَهُمْ بِأَلَّا يَسْـمَعُوا مُحَمَّدًا، وَأَلَّا يُنْصِتُـوا إِلَيْهِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ مَا قَالَهُ الْوَلِيدُ، فَلَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ وَهُوَ يَطُوفُ بَيْنَهُمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ، وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَـابِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفَكِّرُوا فِيمَا سَـمِعُوا.. يَأْتِيهِمْ صَوْتُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ مِنْ خَلْفِ الرَّسُولِ ﷺ يَصِيحُ فِي النَّاسِ وَيَقُولُ:

- لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ صَابِئٌ كَذَّابٌ!!

وَمَـرَّتْ أَيَّامُ مَوْسِـمِ الْحَـجِّ، وَعَادَ الْحَجِيـجُ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَرَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْـتَمِعْ رَجُلٌ وَاحِـدٌ إِلَى مُحَمَّـدٍ ﷺ وَلَمْ يُؤْمِـنْ بِهِ أَحَدٌ ـ فَمَنْ هَذَا الَّذِي يُؤْمِنُ بِقَـوْلٍ يَخْرُجُ مِنْ رَجُلٍ يَتَّهِمُهُ قَوْمُهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَيُسَفِّهُونَ قَوْلَهُ وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ ـ فَإِنَّ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، قَدِ انْتَشَرَ فِي الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا.

وَتَفَرَّغَتْ قُرَيْشٌ لِمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِوَأْدِهَا وَهِيَ لَا تَزَالُ فِي مَهْدِهَا، وَصَارُوا يَسْـتَهْزِئُونَ بِالرَّسُـولِ ﷺ وَيَسْـخَرُونَ مِنْهُ وَيُكَذِّبُونَهُ، وَيُلْصِقُونَ بِهِ كُلَّ الصِّفَاتِ الَّتِي تُضْعِـفُ نُفُـوسَ مَنْ آمَنَ بِـهِ، وَتُفْقِدُهُـمْ ثِقَتَهُمْ بِهِ وَبِرِسَـالَتِهِ؛ حَتَّى يَنْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِهِ وَيَعُودُوا إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ.

قَالُوا إِنَّهُ سَاحِرٌ وَكَذَّابٌ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَقَالُوا إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَتَعَمَّدُوا أَنْ يَتَّهِمُوا الرَّسُولَ ﷺ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ حَتَّى يَضِيقَ صَدْرُهُ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَتْرُكَ دَعْوَتَهُ. وَضَاقَ صَدْرُهُ الْكَرِيمُ بِالْفِعْلِ، فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَسْجُدَ لَهُ، فَرَاحَ عَنْهُ الضِّيقُ، وَفَشِلَتْ مُحَاوَلَةُ الْكَافِرِينَ.

وَقَالُوا إِنَّ مَا يَقُولُهُ مِنْ آيَاتٍ لَيْسَتْ إِلَّا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ يَرَاهَا بِاللَّيْلِ وَيَصُوغُهَا بِالنَّهَارِ، أَوْ أَسَاطِيرَ يُمْلِيهَا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ مِنَ الْجِنِّ. فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَأْتِي إِلَّا لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.

وَقَالُوا شَاعِرٌ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ شُبْهَتَهُمْ بِأَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ.

وَقَالُوا: لِمَاذَا يَكُونُ الرَّسُولُ بَشَرًا يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟

فَأَوْحَى اللهُ إِلَى رَسُولِهِ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَا يَكُونُونَ إِلَّا بَشَرًا، وَيُذَكِّرَهُمْ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا مِنَ الْبَشَرِ، فَلِمَاذَا يُؤْمِنُونَ بِهِمْ؟

حِينَ وَجَدَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ كُلَّ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُطْلِقُونَهَا حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ مَرْدُودٌ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ بِمَنْطِقٍ أَقْوَى مِنْ مَنْطِقِهِمْ وَأَكْثَرَ إِقْنَاعًا لِلسَّامِعِينَ، كَفُّوا عَنْ إِصْرَارِهِمْ عَلَى إِطْلَاقِهَا، وَوَجَّهُوا رَفْضَهُمْ لِأَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ، هَذَا الْفَقِيرُ الْيَتِيمُ، هُوَ الرَّسُولَ، وَرَاحُوا يَتَنَدَّرُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ: لِمَاذَا اخْتَارَهُ اللهُ رَسُولًا وَلَمْ يَخْتَرْ وَاحِدًا مِنْ كِبَارِ مَكَّةَ أَوِ الطَّائِفِ مَثَلًا وَفِيهِمَا مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَجَاهًا وَسُلْطَانًا؟ فَسَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَأَرْسَلَ يَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ أَيْنَ يَضَعُ رَحْمَتَهُ، وَالرَّسُولُ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ.

يَعْرِفُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي كُلِّ ادِّعَاءٍ أَوْ شُبْهَةٍ يُطْلِقُونَهَا عَلَى الصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ أَوْ سَاحِرٍ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ مَا يَنْزِلُ إِلَيْهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللهِ، لَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ وَهَيْبَتِهِمْ أَمَامَ هَذَا الدِّينِ الَّذِي يُسَاوِي بَيْنَ النَّاسِ، وَيَخَافُونَ مِنْ تِلْكَ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي يُعْطِيهَا اللهُ لِلْإِنْسَانِ فِي اخْتِيَارِ حَيَاتِهِ وَدِينِهِ. وَصَارَ كُلُّ الَّذِي يُرِيدُونَهُ.. هُوَ أَنْ يَنْفَضَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ وَلَا يُصَدِّقَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

أَرْسَلَ اللهُ آيَاتِ الْقُرْآنِ تُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَتَشُدُّ مِنْ أَزْرِهِمْ، وَتُبَشِّرُهُمْ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَفِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، فَازْدَادَ الْمُسْلِمُونَ تَمَسُّكًا بِدِينِهِمْ، وَصَارَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ وَالتَّصْدِيقُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدَرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْأَشْرَافِ وَهُمْ كَثْرَةٌ وَمَنْ آمَنَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَهُمْ قِلَّةٌ.

انْتَقَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَسَالِيبِ الِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ إِلَى أَسَالِيبِ الِاضْطِهَادِ وَالتَّعْذِيبِ، وَصَارَ زَعِيمُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَشْتَدُّ فِي تَعْذِيبِ مَنْ آمَنَ فِي قَبِيلَتِهِ مِنَ الْعَبِيدِ، فَهَا هُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ يَأْتِي بِعَبْدِهِ بِلَالٍ فِي عِزِّ الظَّهِيرَةِ وَالشَّمْسُ تَضْرِبُ الرِّمَالَ وَالصُّخُورَ بِلَهِيبِهَا، فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَضَعُ فَوْقَ صَدْرِهِ صَخْرَةً كَبِيرَةً، حَتَّى يُكْرِهَهُ عَلَى الرُّجُوعِ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ، لَكِنَّ بِلَالًا لَا يَنْطِقُ بِمَا يُرْضِيهِ.. وَيُسْمِعُ سَيِّدَهُ مَا يَكْرَهُ وَيُرَدِّدُ: أَحَدٌ.. أَحَدٌ.

أَحَدٌ..أَحَدٌ، هُوَ اللهُ الَّذِي عُذِّبَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَائِلُ لِإِيمَانِهِمْ بِهِ، حَتَّى عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ لَمْ يَنْجُ مِنَ الْعَذَابِ أَيْضًا؛ فَقَدْ كَانَ عَمُّهُ يَلُفُّهُ فِي حَصِيرٍ مِنْ وَرَقِ النَّخِيلِ ثُمَّ يُدَخِّنُهُ مِنْ تَحْتِهِ؛ حَتَّى يَخْتَنِقَ أَوْ يَتْرُكَ مُحَمَّدًا وَيَعُودَ إِلَى مَا يَعْبُدُونَ. لَكِنَّ الَّذِي ذَاقَ

حَـلَاوَةَ الْإِيمَـانِ، لَا يُرْجِعُهُ عَنْـهُ عَذَابٌ. وَظَلَّ بِلَالٌ عَلَى حَالِهِ مِـنَ الصَّبْرِ عَلَى الْعَذَابِ حَتَّى اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَأَعْتَقَهُ.

8

تَفَاقَمَتْ أَسَالِيبُ الْعَذَابِ لِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعَبِيدِ، حَتَّى صَارَتْ مَكَّةُ ضَيِّقَةً عَلَيْهِمْ مَعَ اتِّسَاعِهَا، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ لَمْ تَمْتَدَّ يَدٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ بِالْأَذَى؛ فَقَدْ كَانَ فِي حِمَايَةِ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَلَا يُصِيبُهُ سُوءٌ.

وَفِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ جَاءَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟

فَاعْتَدَلَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ مِنَ الْغَضَبِ، وَقَالَ لَهُ:

- لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ مَنْ يُمَشَّطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، فَمَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ اثْنَيْنِ، فَمَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ.

لَقَدْ تَعَلَّمَ الْأُمِّيُّ الصَّادِقُ الْأَمِينُ مِمَّا نَزَّلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُمَكِّنُ عَبِيدَهُ مِنَ النَّجَاحِ إِلَّا بَعْدَ ابْتِلَائِهِمْ، وَهَذَا دَرْسٌ تَعَلَّمَهُ مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي حَكَاهَا لَهُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ مِنَ الرُّسُلِ.

فَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَيُوسُفُ وَشُعَيْبٌ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَسُلَيْمَانُ وَأَيُّوبُ وَيَحْيَى ثُمَّ عِيسَى، قَدِ ابْتَلَاهُمُ اللهُ جَمِيعًا بِالْمَصَائِبِ وَالْمِحَنِ قَبْلَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالنَّجَاحِ فِي رِسَالَتِهِمْ؛ لِذَلِكَ كَانَ يُشَجِّعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَحَمُّلِ عَذَابَاتِهِمْ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

وَذَاتَ يَـوْمٍ جَـاءَهُ عَبْـدُ الرَّحْمَنِ بْـنُ عَـوْفٍ وَأَصْحَابُهُ، وَقَدْ ضَاقُـوا كَمَـا ضَـاقَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَذَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ لَهُمْ، وَقَالُوا:

- يَا نَبِيَّ اللهِ... كُنَّا فِي عِزَّةٍ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً.

وَطَلَبُوا مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ أَنْ يَسْـمَحَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِـهِمْ، لَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَالَبَهُمْ بِضَبْطِ النَّفْسِ وَالتَّحَلِّي بِالصَّبْرِ، وَقَالَ لَهُمْ:

- إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ.

لَـمْ يَكُـنِ الرَّسُـولُ الْكَرِيـمُ ﷺ يُرِيـدُ لِأَصْحَابِـهِ مُقَابَلَـةَ الْقُـوَّةِ بِالْقُـوَّةِ، وَالْعُدْوَانِ بِالْعُـدْوَانِ؛ حِرْصًـا عَـلَى حَيَاتِهِـمْ وَعَلَى مُسْـتَقْبَلِ الدَّعْوَةِ، فَلَـوْ دَخَلُـوا فِي مُوَاجَهَةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ سَيَكُونُ نَتِيجَتُهَا أَنْ يَنْتَهِيَ أَمْرُ الدَّعْوَةِ نِهَائِيًّا، فَالْمُشْرِكُونَ أَكْثَرُ عَدَدًا وَأَكْبَرُ قُـوَّةً، لِذَلِـكَ كَانَ عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ يَطْلُبُ مِنْ أَصْحَابِـهِ التَّحَـلِّيَ بِالصَّبْرِ وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى تَوْثِيقِ الصِّلَةِ بِاللهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَكَانَـتْ فِي آيَـاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِشَـارَاتٌ بَلِيغَةٌ مِـنَ اللهِ تَعَالَى إِلَى عِبَـادِهِ الْمُؤْمِنِينَ تُوحِـي بِالْهِجْرَةِ؛ هَرَبًـا بِالدِّينِ إِلَى أَرَاضٍ بَعِيدَةٍ عَـنْ أَرْضِ الِاضْطِهَادِ وَالْعَذَابِ؛ فَفِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ إِيحَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ وَيُهَاجِرُوا بَعِيدًا عَنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعُـدْوَانِ، وَأَنْ يَعْتَزِلُوا مَنْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ. وَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ تَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَـاءُ مِنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ إِنَّ سُـورَةَ الزُّمَرِ تُشِيرُ صَرَاحَةً إِلَى الْهِجْرَةِ، وَتُعْلِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَرْضَ اللهِ وَاسِعَةٌ، وَإِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَأَلْهَمَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ رَسُولَ اللهِ أَنْ يَسْمَحَ لِأَصْحَابِهِ بِالْهِجْرَةِ، وَحِينَ اجْتَمَعَ بِهِمْ قَالَ لَهُمْ:

- إِنَّ بِـأَرْضِ الْحَبَشَـةِ مَلِكًا لَا يُظْلَـمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِـلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ.

تَسَـلَّلَ مِنْ مَكَّةَ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ، مِنْهُمُ الرَّاكِبُ وَالْمَاشِي حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ رَحِيمًا؛ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ سَفِينَتَانِ مُبْحِرَتَانِ إِلَى الْحَبَشَةِ فَرَكِبُوا فِيهِمَا، وَلَمْ يُدْرِكْهُمْ مَنْ خَرَجَ خَلْفَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ.

أَمَّـا أَبُو بَكْـرٍ d فَقَدْ أَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْيَمَنِ، وَبَعْدَ مَسِـيرَةِ خَمْـسِ لَيَالٍ فِي الطَّرِيقِ، وَعِنْدَ مَكَانٍ يُسَمَّى (بَرْكَ الْغِمَادِ) قَابَلَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ قَادِمًا مِنْ هُنَاكَ، فَقَالَ لَهُ:

- أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

رَدَّ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ:

- أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، فَقَدْ آذَانِي قَوْمِي.

تَعَجَّبَ ابْنُ الدَّغِنَةِ مِنْ رَدِّ أَبِي بَكْرٍ، وَقَالَ لَهُ:

- مِثْلُكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ.. فَإِنَّكَ تُكْسِـبُ الْمَعْـدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْـرِي الضَّيْـفَ وَتُعِينُ عَـلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَـكَ جَارٌ، فَارْجِـعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ فِي بِلَادِكَ.

وَرَجَـعَ أَبُـو بَكْرٍ مَعَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَحِينَ ذَهَبَا إِلَى قُرَيْشٍ أَعْلَنَ ابْنُ الدَّغِنَةِ أَنَّهُ أَجَارَ أَبَا بَكْرٍ، فَوَافَقَتْ قُرَيْشٌ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ أَبُو بَكْرٍ رَبَّهُ فِي دَارِهِ.

وَمَضَى الْوَقْتُ وَأَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ اللهَ فِي فِنَاءِ دَارِهِ، وَحِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لَمْ يَكُنْ يَسْـتَطِيعُ أَنْ يَغْلِبَ دُمُوعَهُ، فَكَانَتْ تَنْسَابُ عَلَى وَجْهِهِ، وَتَجْتَمِعُ نِسَاءُ وَأَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَتَعَجَّبُونَ، فَفَزِعَ الْقُرَشِـيُّونَ خَوْفًا عَلَى نِسَـائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَطَلَبُوا مِنِ ابْنِ الدَّغِنَةِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَرَاحَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ:

- يَا أَبَا بَكْرٍ، إِمَّا أَنْ تَعْبُدَ رَبَّكَ سِرًّا، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ جِوَارِي.

غَضِبَ أَبُو بَكْرٍ غَضْبَةً عَظِيمَةً لِلّٰهِ، وَقَالَ لِابْنِ الدَّغِنَةِ:

- إِنِّي أَرُدُّ عَلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ.

وَظَلَّ أَبُو بَكْرٍ فِي مَكَّةَ بِجِوَارِ الرَّسُولِ ﷺ يَعْبُدُ اللهَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا، وَيَتَحَمَّلُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَوَاصَلَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ دَعْوَتَهُ، بِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُدْرَةٍ هَائِلَةٍ عَلَى التَّحَمُّلِ، يَذْهَبُ إِلَى الْقَبَائِلِ فِي نُجُوعِهَا، يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِ، لَيْسَ مُهِمًّا أَنْ يُعْلِنُوا إِيمَانَهُمُ الْآنَ.. الْمُهِمُّ هُوَ أَنْ تَنْفُذَ الْكَلِمَاتُ عَبْرَ آذَانِهِمْ إِلَى قُلُوبِهِمُ الْمُنْغَلِقَةِ بِمَفَاتِيحِ الْآبَاءِ وَالْأَوَّلِينَ وَمِيرَاثِ سِنِينَ كَثِيرَةٍ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ؛ عَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا بَعِيدًا عَنْ تَحْرِيضِ الْقُرَشِيِّينَ لَهُمْ، وَيَهْتَدُونَ.

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حَرِيصًا عَلَى أَنْ تُبَلَّغَ رِسَالَتُهُ إِلَى كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ، حُرٍّ وَعَبْدٍ. وَتَمْضِي الْأَيَّامُ وَالْأَسَابِيعُ وَالشُّهُورُ، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاضٍ فِي دَعْوَتِهِ، لَمْ يَتْرُكْ نَادِيًا لِلْمُشْرِكِينَ إِلَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَلَا سُوقًا إِلَّا سَارَ بَيْنَ رُوَّادِهَا، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَأَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

آمَنَ بِالرَّسُولِ ﷺ أُنَاسٌ تَفَتَّحَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، وَصَارَ إِيمَانُهُمْ بِاللهِ الْوَاحِدِ وَتَصْدِيقُ مَا جَاءَ بِهِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ قَدَرًا مُشْتَرَكًا، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالشَّرِيفِ، مُسْتَبْشِرِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، بَيْنَمَا لَمْ يَجِدْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا السُّخْرِيَةَ وَالتَّكْذِيبَ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يَصِيرُ تُرَابًا سَوْفَ يُبْعَثُ مِنْ جَدِيدٍ لِيُحَاسَبَ عَنْ أَعْمَالِهِ.

نَسِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ. وَلَوْ تَدَبَّرُوا خَلْقَ اللهِ فِيمَا حَوْلَهُمْ لَصَدَّقُوهُ، لَكِنَّ عِنَادَهُمْ جَعَلَهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ حُجَّةٍ جَدِيدَةٍ يُبَرِّرُونَ بِهَا رَفْضَهُمُ الْإِيمَانَ وَعَدَمَ تَرْكِهِمْ مَا وَجَدُوا آبَاءَهُمْ لَهَا عَابِدِينَ.

حَاوَلَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ عُقُولَ الْمُشْرِكِينَ تَتَحَرَّرُ مِنْ عَادَةِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، الَّتِي لَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ مِنْ حَوْلِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنُوا الْحَقِيقَةَ وَيَعْرِفُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَرْكِ آلِهَتِهِمُ الْحَجَرِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي تِجَارَتِهِمْ وَمَا سَيَحْدُثُ لَهَا حِينَ يَنْتَشِرُ هَذَا الدِّينُ. وَاجْتَمَعُوا يَتَنَاقَشُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ، لَقَدْ مَارَسُوا كُلَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالِاضْطِهَادِ عَلَى مَنْ أَسْلَمُوا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا تَمَسُّكًا بِدِينِهِمْ وَتَعَلُّقًا بِنَبِيِّهِمْ، فَمَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَظَلُّوا يَتَشَاوَرُونَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَرَارٍ، لَيْسَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يَبْدَءُوا مِنَ الْيَوْمِ فِي اسْتِخْدَامِ أَقْصَى أَنْوَاعِ الشِّدَّةِ؛ حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ، لَكِنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ قَالَ:

- اذْهَبُوا أَوَّلًا إِلَى عَشِيرَةِ مُحَمَّدٍ وَأَنْذِرُوهُمْ؛ لِيَتَخَلَّوْا عَنْ حِمَايَتِهِ وَلَا يُنَاصِرُوهُ. فَإِذَا رَفَضُوا، أَعْلَنَّا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ وَعَامَلْنَاهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَعْدَاءِ.

9

ذَهَبَ وَفْدٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، وَقَالُوا لَهُ:

- يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَضَلَّلَ آبَاءَنَا، فَإِمَّا أَنْ تَجْعَلَهُ يَكُفُّ عَمَّا يَفْعَلُ أَوْ تَتْرُكَهُ لَنَا.

طَيَّبَ أَبُو طَالِبٍ خَاطِرَ الْأَشْرَافِ، وَوَعَدَهُمْ بِأَنْ يُخَاطِبَ ابْنَ أَخِيهِ فِيمَا قَالُوا، لَكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرِ ابْنَ أَخِيهِ بِشَيْءٍ، فَوَاصَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ دَعْوَتَهُ، وَاجْتَمَعَ الْأَشْرَافُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ أَخَذُوا الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ مَعَهُمْ وَذَهَبُوا إِلَى أَبِي طَالِبٍ وَقَدَّمُوهُ لَهُ، وَقَالُوا لَهُ:

- يَا أَبَا طَالِبٍ، هَذَا هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَهُوَ مِنْ أَنْجَبِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ وَأَجْمَلِهِمْ، اتَّخِذْ مِنْهُ وَلَدًا لَكَ، وَاتْرُكْ لَنَا ابْنَ أَخِيكَ نَفْعَلْ بِهِ مَا نَشَاءُ!

بِالطَّبْعِ لَمْ يُوَافِقْ أَبُو طَالِبٍ عَلَى مَا عَرَضَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَأْخُذَ وَلَدَهُمْ لِيُرَبِّيَهُ، وَيُطْعِمَهُ وَيَسْقِيَهُ، وَيَتْرُكَ لَهُمُ ابْنَ أَخِيهِ لِيَقْتُلُوهُ؟! لَقَدْ كَانَ جُنُونًا مِنْهُمْ أَنْ يَعْرِضُوا عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرَ، وَلِذَلِكَ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ خَيْبَتِهِمْ، وَاشْتَعَلَتْ فِي قُلُوبِهِمْ كَرَاهِيَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ آمَنَ بِهِ، فَرَاحُوا يُنَفِّسُونَ عَنْهَا وَيَتَبَارَوْنَ فِي إِنْزَالِ الْأَذَى بِهِمْ.

وَوَاصَلَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْهُبُوطَ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ يَتْلُوهَا عَلَى عُقُولِ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَعْرِفُونَ مِنْهَا أَنَّ مَا يُلَاقُونَهُ مِنْ أَذًى قَدْ حَدَثَ مِنْ قَبْلُ لِأَتْبَاعِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، وَقَدْ نَجَحَتْ دَعْوَتُهُمْ وَانْتَشَرَ دِينُهُمْ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ تَبُثُّ فِيهِمْ رُوحَ التَّضْحِيَةِ وَالصَّبْرِ فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ، وَتُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَةَ لَهُمْ

فِي النِّهَايَةِ، وَتُبَشِّرُهُمْ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَبِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْجَنَّةِ، جَزَاءً لِصَبْرِهِمْ، فَتُخَفِّفُ عَنْهُمْ آلَامَهُمْ، وَتُشَجِّعُهُمْ عَلَى الصُّمُودِ أَمَامَ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ تَحَطَّمَتْ كُلُّ أَسَالِيبِهِمْ فِي مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ.

وَاصَلَ الرَّسُولُ ﷺ دَعْوَتَهُ، وَزَادَتْ قُوَّةُ تَحَمُّلِ الْمُسْلِمِينَ لِأَذَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى نَفِدَ صَبْرُهُمْ، فَاجْتَمَعُوا مَرَّةً ثَالِثَةً فِي نَادِيهِمْ، يَتَنَاقَشُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَذْهَبُوا لِأَبِي طَالِبٍ يُحَذِّرُونَهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ.

ذَهَبَ وَفْدُ الْأَشْرَافِ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، وَقَالُوا لَهُ:

- يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ لَكَ شَرَفًا وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ طَلَبْنَا مِنْكَ أَنْ تَنْهَى ابْنَ أَخِيكَ عَنَّا فَلَمْ تَنْهَهُ، وَإِنَّا وَاللهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا. فَإِنْ لَمْ تَكُفَّهُ عَنَّا نَازَلْنَاهُ وَإِيَّاكَ، حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ.

قَذَفَ الْأَشْرَافُ تَحْذِيرَهُمْ فِي وَجْهِ أَبِي طَالِبٍ وَانْصَرَفُوا، وَظَلَّ الرَّجُلُ يُفَكِّرُ فِيمَا سَمِعَهُ،

فَعَظُمَ عَلَيْهِ أَنْ يُخَالِفَ قَوْمَهُ وَيُعَادِيَهُمْ، لَكِنَّ الْأَعْظَمَ مِنْهُ أَنْ يَتْرُكَ ابْنَ أَخِيهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ لِوَحْشِيَّتِهِمْ.

أَرْسَلَ أَبُو طَالِبٍ مَنْ يَأْتِي لَهُ بِابْنِ أَخِيهِ، وَحِينَ جَاءَهُ، حَكَى لَهُ مَا قَالَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ.. وَقَالَ لَهُ رَاجِيًا:

- يَا ابْنَ أَخِي، أَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ.

وَكَانَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ رَحِيمًا بِعَمِّهِ، بَارًّا بِهِ، لَكِنْ.. حِينَ تَكُونُ طَاعَتُهُ مَعْصِيَةً لِلْخَالِقِ، فَهَذَا مَا لَا يَرْضَاهُ أَبَدًا، فَرَدَّ عَلَى عَمِّهِ قَائِلًا لَهُ:

- يَا عَمِّ.. وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ مَا قَالَهُ لِعَمِّهِ، وَصَعُبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَهُ عَمُّهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَتَرَقْرَقَتِ الدُّمُوعُ فِي عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَبْكِيَ أَمَامَ عَمِّهِ فَانْسَحَبَ خَارِجًا، لَكِنَّ أَبَا طَالِبٍ هُوَ الْآخَرَ صَعُبَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ ابْنُ أَخِيهِ مِنْ عِنْدِهِ بَاكِيًا حَالَهُ، فَنَادَاهُ طَالِبًا مِنْهُ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا لَبَّى الرَّسُولُ ﷺ النِّدَاءَ.. قَالَ لَهُ عَمُّهُ:

- اذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي.. وَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ، وَاللهِ لَا أُسْلِمُكَ لَهُمْ أَبَدًا.

وَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ فَرِحًا بَعْدَ حُزْنٍ، وَتَرَكَ عَمَّهُ يُفَكِّرُ فِي الْأَحْدَاثِ الْجِسَامِ الَّتِي سَتَأْتِي فِي الْأَيَّامِ الْقَادِمَةِ، فَهُوَ بِحِمَايَتِهِ ابْنَ أَخِيهِ قَدْ تَحَدَّى إِرَادَةَ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَسَيَزْدَادُونَ قَسْوَةً عَلَى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ قُوَّةٍ تَحْمِيهِ مَعَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَطْلُبُ مِنْهُمْ حِمَايَةَ مُحَمَّدٍ، فَوَافَقُوا جَمِيعًا.

انْضَمَّ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْقُرَشِيِّينَ فِي عَدَاوَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَشَجَّعَهُمْ وُجُودُهُ بَيْنَهُمْ أَنْ بَدَءُوا فِي تَنْفِيذِ تَهْدِيدِهِمْ، وَتَعَمَّدُوا إِيذَاءَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُلِّ مَكَانٍ... فَتَارَةً يُلْقُونَ أَمْعَاءَ شَاةٍ مَذْبُوحَةٍ فَوْقَ ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ لِرَبِّهِ، وَتَارَةً يُحَاوِلُونَ خَنْقَهُ بِمَلَابِسِهِ، وَأُخْرَى يَجْذِبُونَهُ مِنْ شَعْرِهِ وَلِحْيَتِهِ، هَذَا غَيْرَ أَنَّهُمْ صَارُوا يُرْسِلُونَ خَلْفَهُ تَابِعًا مِنْهُمْ يَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ مُدَّعِيًا أَنَّ بِهِ مَسًّا مِنَ الْجُنُونِ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُ وَلَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي طَرِيقِهِ لِيُصَلِّيَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ جَبَلِ الصَّفَا، وَإِذَا بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ (أَبِي جَهْلٍ) يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ، وَيَسُبُّهُ وَيَرْمِيهِ بِالتُّرَابِ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَرَاحَ مُتَفَاخِرًا إِلَى قَوْمِهِ فِي نَادِيهِمْ، بِالْقُرْبِ مِنْ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَعَادَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ حَزِينًا.

وَكَانَتْ جَارِيَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ شَاهِدَةً عَلَى مَا جَرَى، وَحِينَ رَأَتْ حَمْزَةَ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَادِمًا لِلطَّوَافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ كَعَادَتِهِ، كُلَّمَا رَجَعَ مِنْ رِحْلَةِ صَيْدٍ، أَخْبَرَتْهُ بِمَا حَدَثَ.

غَضِبَ حَمْزَةُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَسْرَعَ إِلَى نَادِي الْقَوْمِ حَيْثُ يَجْلِسُونَ، وَوَجَدَ أَبَا جَهْلٍ هُنَاكَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَرَفَعَ قَوْسَهُ وَضَرَبَهُ بِهَا عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- أَتَشْتُمُ مُحَمَّدًا وَأَنَا عَلَى دِينِهِ؟!

فُوجِئَ الْجَالِسُونَ بِمَا حَدَثَ، وَفُوجِئُوا بِدَمِ أَبِي جَهْلٍ يَنْدَفِعُ مِنْ جُرْحِهِ عَلَى وَجْهِهِ، فَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ وَمِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامُوا يُحَاوِلُونَ الثَّأْرَ لَهُ، لَكِنَّهُ اسْتَوْقَفَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ:

- دَعُوا أَبَا عُمَارَةَ فَإِنِّي سَبَبْتُ ابْنَ أَخِيهِ سَبًّا قَبِيحًا.

رَاحَ حَمْـزَةُ إِلَى دَارِهِ.. وَفِي صَبَـاحِ الْيَـوْمِ التَّـالِي، ذَهَـبَ إِلَى الرَّسُـولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَأَعْلَنَ إِسْـلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَاهَدَهُ عَلَى نُصْرَتِهِ وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى النِّهَايَةِ، وَانْتَشَرَ خَبَرُ إِسْلَامِهِ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا.

10

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِدِينِ اللهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَادَّ الطَّبْعِ سَرِيعَ الْغَضَبِ، شُجَاعًا.. ذَا قُوَّةٍ فَائِقَةٍ، وَلَمْ يَرِقَّ قَلْبُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَرَّرَ عُمَرُ قَتْلَ الرَّسُولِ ﷺ، فَسَلَّ سَيْفَهُ وَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْهُ. وَبَيْنَمَا هُوَ فِي طَرِيقِهِ، قَابَلَهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَهُوَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُ يُخْفِي إِسْلَامَهُ، فَقَالَ لَهُ:

- إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ يَا عُمَرُ؟

قَالَ عُمَرُ بِجُرْأَةٍ وَغِلْظَةٍ:

- أُرِيدُ مُحَمَّدًا، هَذَا الصَّابِئَ الَّذِي فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آلِهَتَهَا، فَأَقْتُلُهُ.

ارْتَجَفَ نُعَيْمٌ خَوْفًا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، لَكِنَّهُ سَيْطَرَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى لَا يُفْتَضَحَ أَمْرُهُ، وَقَالَ لِعُمَرَ نَاصِحًا مُحَذِّرًا:

- وَاللهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ يَا عُمَرُ، وَهَلْ يَتْرُكُكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟! أَفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ أَوَّلًا؟

غَضِبَ عُمَرُ مِنَ الرَّجُلِ، وَصَاحَ يَسْأَلُهُ:

- أَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟

قَالَ نُعَيْمٌ وَقَدْ تَمَاسَكَ قَلِيلًا:

- أُخْتُكَ فَاطِمَةُ وَزَوْجُهَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ.

صَاحَ عُمَرُ وَقَالَ فِي ثَوْرَةٍ:

- أَوَ قَدْ فَعَلَتْ؟!!

رَدَّ نُعَيْمٌ وَقَدْ عَادَتْ إِلَيْهِ رُوحُهُ:

- نَعَمْ.

دَارَتِ الشَّيَاطِينُ حَوْلَ رَأْسِ عُمَرَ، فَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فِي يَدِهِ وَانْطَلَقَ مُسْرِعًا إِلَى دَارِ سَعِيدِ ابْنِ زَيْدٍ ابْنِ عَمِّهِ وَزَوْجِ أُخْتِهِ فَاطِمَةَ، وَطَرَقَ الْبَابَ بِعُنْفٍ حَتَّى كَادَ يَخْلَعُهُ، وَكَانَتْ أُخْتُهُ وَزَوْجُهَا فِي الدَّاخِلِ وَكَانَ مَعَهُمَا خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ يُعَلِّمُهُمَا الْقُرْآنَ، وَفَتَحَ سَعِيدُ ابْنُ زَيْدٍ الْبَابَ، فَأَمْسَكَ عُمَرُ بِمَلَابِسِهِ وَرَاحَ يَهُزُّهُ بِعُنْفٍ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- أَرَاكَ قَدْ صَبَأْتَ.

رَدَّ سَعِيدٌ بِأَنْفَاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَقَالَ:

- يَا عُمَرُ.. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟

دَفَعَهُ عُمَرُ دَفْعَةً شَدِيدَةً أَلْصَقَتْهُ بِالْجِدَارِ! وَاتَّجَهَ نَاحِيَةَ أُخْتِهِ وَأَمْسَكَ بِهَا وَهُوَ يَصِيحُ فِيهَا، وَيَقُولُ:

- أَرَاكِ قَدْ صَبَأْتِ أَنْتِ أَيْضًا.

رَدَّتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهِ وَقَالَتْ:

- يَا عُمَرُ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟

ضَرَبَهَا عُمَرُ ضَرْبَةً شَقَّتْ جِلْدَ وَجْهِهَا، فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهَا الصَّحِيفَةُ الَّتِي كَانَتْ تَقْرَأُ مِنْهَا آيَاتِ الْقُرْآنِ، فَأَسْرَعَتْ بِرَفْعِهَا عَنِ الْأَرْضِ، فَقَالَ عُمَرُ لَهَا:

- هَاتِ هَذِهِ الصَّحِيفَةَ.

رَدَّتْ فَاطِمَةُ بِجُرْأَةٍ لَمْ يَعْهَدْهَا عُمَرُ فِي أُخْتِهِ، وَقَالَتْ لَهُ:

- لَا.. أَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ.

ثُمَّ أَرَادَتْ لَهُ خَيْرًا، فَقَالَتْ:

- اذْهَبْ وَتَوَضَّأْ، ثُمَّ اقْرَأْهَا.

لَا يَدْرِي أَحَدٌ لِمَاذَا أَطَاعَ عُمَرُ أُخْتَهُ إِلَّا اللهُ، الَّذِي شَرَحَ قَلْبَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، وَبِهُدُوءٍ رَاحَ وَتَوَضَّأَ.. وَزَالَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَصَارَ وَدِيعًا، وَأَخَذَ الْوَرَقَةَ مِنْ أُخْتِهِ وَرَاحَ يَقْرَؤُهَا، وَكَانَ فِيهَا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة طه: 1ـ 6).

اهْتَزَّ قَلْبُ عُمَرَ وَتَفَتَّحَ لِلْإِسْلَامِ، وَقَالَ:

- مَا هَذَا بِكَلَامِ بَشَرٍ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

ذُهِلَتْ فَاطِمَةُ وَزَوْجُهَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَدُهِشَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ الْمُتَخَفِّي فِي رُكْنِ الدَّارِ، وَلَمْ يُفِيقُوا مِنْ هَوْلِ صَدْمَةِ الْفَرَحِ إِلَّا عَلَى صَوْتِ عُمَرَ يَقُولُ:

- دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ.

خَرَجَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ مِنْ مَخْبَئِهِ وَهُوَ يَقُولُ فِي بَهْجَةٍ وَسَعَادَةٍ:

- أَنَا أَدُلُّكَ عَلَيْهِ. وَاللهِ لَقَدْ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْأَمْسِ أَنْ يُعِزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ بِأَحَدِ الْعُمَرَيْنِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدِ اخْتَارَكَ أَنْتَ.

صَحِبَ خَبَّابٌ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ حَيْثُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُنَاكَ، وَحِينَ وَصَلَا دَقَّ عُمَرُ الْبَابَ، فَرَدَّ وَاحِدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَقَالَ:

- مَنْ؟

أَجَابَ عُمَرُ وَقَالَ:

- عُمَرُ.

أُصِيبَ النَّاسُ فِي دَاخِلِ الدَّارِ بِالرُّعْبِ الشَّدِيدِ، وَاخْتَبَأَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِي مَكَانٍ، وَلَمْ يَجِدْ أَيٌّ مِنْهُمُ الشَّجَاعَةَ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ، إِلَّا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَدْ أَسْرَعَ نَاحِيَةَ الْبَابِ، وَهُوَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ:

- دَعْهُ لِي.

وَفَتَحَ الْبَابَ وَدَخَلَ عُمَرُ، وَقَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ حَمْزَةُ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ، قَالَ لَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ:

- دَعْهُ يَا حَمْزَةُ.

عَادَ حَمْزَةُ إِلَى مَكَانِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَسْرَعَ فِيهِ رَجُلَانِ وَأَمْسَكَا بِعَضُدَيْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ وَدَخَلَا بِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَحِينَ صَارُوا أَمَامَهُ قَالَ لَهُمْ:

- اتْرُكُوهُ.

أَطَاعَ الرَّجُلَانِ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَلَسَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَامَهُ، فَأَمْسَكَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ لَهُ:

- مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ فَوَاللهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللهُ بِكَ قَارِعَةً.

قَالَ عُمَرُ فِي بَشَاشَةٍ:

- جِئْتُ لِأُؤْمِنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

لَحْظَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، كَبَّرَ لَهَا الصَّحَابَةُ تَكْبِيرًا عَالِيًا سَمِعَتْهُ مَكَّةُ كُلُّهَا، وَحِينَ تَلَاشَى صَدَى تَكْبِيرَاتِ الصَّحَابَةِ، قَالَ عُمَرُ لِلرَّسُولِ ﷺ:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- بَلَى .

عَادَ عُمَرُ إِلَى السُّؤَالِ ثَانِيَةً وَقَالَ:

- فَفِيمَ الِاخْتِفَاءُ؟

سَأَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ لَهُ:

- فَمَا تَرَى يَا عُمَرُ؟

رَدَّ عُمَرُ وَقَالَ:

- نَخْرُجُ وَنَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ.

تَرَاقَصَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحَةً حِينَ رَأَوُا الرَّسُولَ ﷺ يَهُمُّ وَاقِفًا وَهُوَ يَقُولُ:

- نَعَمْ يَا عُمَرُ.

خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ فِي صَفَّيْنِ، صَفٌّ عَلَى رَأْسِهِ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ، وَصَفٌّ عَلَى رَأْسِهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَصَيْحَاتُ الْإِيمَانِ تُدَوِّي مِنْ حَنَاجِرِهِمْ تَهُزُّ جُدْرَانَ مَكَّةَ كُلَّهَا: اللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الْحَمْدُ، رَدَّدُوهَا بِقُوَّةٍ زَلْزَلَتْ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ خَوْفًا مِنْ عُمَرَ، وَطَافَ الْمُسْلِمُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَعَادُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَهُمْ آمِنُونَ مِنْ بَطْشِ الْمُشْرِكِينَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

11

بَثَّ إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الرُّعْبَ فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ، وَجَلَسُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ يَتَنَاقَشُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَ، فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يُغَيِّرُوا أُسْلُوبَ تَفْكِيرِهِمْ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، فَقَدْ جَرَّبُوا أُسْلُوبَ الْعُنْفِ وَالْأَذَى فَلَمْ يَزِدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تَمَسُّكًا بِدِينِهِمْ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى حِمَايَتِهِمْ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَسَطَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَادِيهِمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ، فَقَالَ عُتْبَةُ لِمَنْ حَوْلَهُ:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكُفُّ عَنَّا؟

قَالُوا:

- بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ.

ذَهَبَ عُتْبَةُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَانْتَظَرَ حَتَّى أَتَمَّ صَلَاتَهُ وَقَالَ لَهُ:

- يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنْ خِيَارِنَا حَسَبًا وَنَسَبًا، وَقَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَقَدْ فَرَّقْتَ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا، فَرُبَّمَا قَبِلْتَ بَعْضَهَا.

رَدَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ:

- قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ.. أَسْمَعْ.

قَالَ عُتْبَةُ:

- يَا ابْنَ أَخِي.. إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَرَفًا جَعَلْنَاكَ سَيِّدًا عَلَيْنَا، لَا نَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِأَمْرِكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكًا جَعَلْنَاكَ مَلِكًا عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ مَسٌّ مِنَ الْجِنِّ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تُشْفَى مِنْهُ.

انْتَظَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عُتْبَةَ حَتَّى أَنْهَى كَلَامَهُ، وَقَالَ لَهُ:

- هَلْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟

قَالَ الرَّجُلُ:

- نَعَمْ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- اسْمَعْ مِنِّي. وَتَلَا الرَّسُولُ قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة فصلت: 1ـ 6).

وَمَضَى الرَّسُولُ ﷺ فِي تِلَاوَةِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ فُصِّلَتْ، وَعُتْبَةُ يُنْصِتُ لَهُ وَقَدْ أَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا حَتَّى وَصَلَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة فصلت: 13).

وَهُنَا وَضَعَ عُتْبَةُ يَدَهُ عَلَى فَمِ الرَّسُولِ ﷺ، وَرَاحَ يَقُولُ لَهُ مُسْتَعْطِفًا:

- حَسْبُكَ.. حَسْبُكَ.

أَدْرَكَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ عُتْبَةَ قَدْ خَافَ مِنْ وُقُوعِ الصَّاعِقَةِ عَلَيْهِمْ، فَكَفَّ عَنْ تِلَاوَتِهِ وَقَالَ لَهُ:

- قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ.

قَامَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى قَوْمِهِ، وَحِينَ اقْتَرَبَ مِنْهُمْ وَرَأَوْا وَجْهَهُ قَدْ تَغَيَّرَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِمَنْ حَوْلَهُ:

- أَحْلِفُ بِاللهِ أَنَّ أَبَا الْوَلِيدِ قَدْ جَاءَكُمْ بِوَجْهٍ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ.

وَلَمَّا جَلَسَ الرَّجُلُ بَيْنَهُمْ سَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ:

- مَاذَا وَرَاءَكَ أَبَا الْوَلِيدِ؟

رَدَّ عُتْبَةُ وَقَالَ:

- وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالْكِهَانَةِ وَلَا بِالسِّحْرِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَدَعُوا الرَّجُلَ لِمَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِكَلَامِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ.

ثَارَ الْقُرَشِيُّونَ عَلَى عُتْبَةَ وَهُوَ كَبِيرُهُمْ، وَصَاحُوا بِهِ قَائِلِينَ:

- سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ.

هَبَّ الرَّجُلُ وَاقِفًا، وَتَرَكَهُمْ وَذَهَبَ عَنْهُمْ وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ:

- هَذَا رَأْيِي، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ.

مَا أَجْمَلَ أَنْ تَأْتِيَ الشَّهَادَةُ لَكَ مِنْ عَدُوِّكَ، فَهَذَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ يَشْهَدُ لِلْقُرْآنِ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلًا مِثْلَهُ قَطُّ، وَيَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا لَا هُوَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ وَلَا

سَـاحِرٍ، وَيَطْلُبُ مِنَ الْقُرَشِـيِّينَ أَنْ يَتْرُكُوهَ لِحَالِهِ، فَيَكُونُ عِزُّهُمْ بِهِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَفْهَمُوا رِسَالَةَ النَّذِيرِ الَّتِي حَمَلَتْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ إِلَيْهِمْ، وَقَالُوا:

- إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ صَرِيحًا فِي الْقَبُولِ أَوِ الرَّفْضِ، بَلْ تَلَا عَلَى عُتْبَةَ آيَاتٍ لَمْ يَفْهَمْهَا، وَرَجَعَ مِنْ حَيْثُ رَاحَ!

وَاجْتَمَعَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ يَوْمًا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ حِينَ يُرْسِلُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مَا عَرَضَهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَـةَ فَإِنَّهُ سَـيَثِقُ فِي جِدِّيَّتِهِمْ وَيُوَافِقُ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَحِينَ أَرْسَـلُوا إِلَيْهِ جَاءَهُمْ ﷺ مُسْـرِعًا وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَيْرٌ وَرَاءَهُمْ، وَإِذَا بِهِمْ يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مَا يُرِيدُونَ، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِثِقَةٍ وَهُدُوءٍ:

- مَـا بِـي مَا تَقُولُونَ، وَمَـا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِـهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا الشَّـرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْـكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُـولًا، وَأَنْـزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي بِأَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِـيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَـالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَـا جِئْتُكُـمْ بِهِ فَهُـوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوا عَلَيَّ أَصْبِـرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

لَـمْ يَكُنْ سَـادَةُ قُرَيْـشٍ يَتَوَقَّعُونَ رَدًّا بِهَذِهِ الْقُـوَّةِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، رَدًّا زَلْـزَلَ قُلُوبَهُمْ وَخَارَتْ أَمَامَهُ قُوَّتُهُمْ، فَصَاحُوا فِي وَجْهِهِ وَقَالُوا مُهَدِّدِينَ:

- أَمَا وَاللهِ لَا نَتْرُكُكَ وَمَا فَعَلْتَ بِنَا حَتَّى نُهْلِكَكَ أَوْ تُهْلِكَنَا!

وَانْصَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى دَارِهِ حَزِينًا آسِفًا لِمَا فَاتَ قَوْمَهُ مِنَ الْخَيْرِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ فِي غَيْظٍ:

- يَا مَعْشَـرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَظَلَّ يَعِيبُ دِينَنَا، وَيَشْـتُمُ آلِهَتَنَا، وَيُسَـفِّهُ

أَحْلَامَنَا، وَإِنِّي أُعَاهِدُ اللهَ لَأَجْلِسَنَّ لَهُ بِحَجَرٍ فَإِذَا سَجَدَ لِصَلَاتِهِ هَشَّمْتُ بِهِ رَأْسَهُ، وَلْيَصْنَعْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ بَعْدَ ذَلِكَ مَا بَدَا لَهُمْ.

وَهَكَذَا جَاءَ الْخَلَاصُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى لِسَانِ أَبِي جَهْلٍ، فَأَزَاحَ عَنْ كَاهِلِ سَادَةِ قُرَيْشٍ هَمًّا ثَقِيلًا، وَاسْتَحْسَنُوا مَا قَالَ وَشَجَّعُوهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَقَالُوا لَهُ:

- وَاللهِ لَا نُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَامْضِ لِمَا تُرِيدُ.

وَتَفَرَّقُوا وَهُمْ يَحْلُمُونَ بِالْخَلَاصِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ يَحْلُمُونَ، وَحِينَ جَاءَ الصَّبَاحُ، أَسْرَعُوا جَمِيعًا لِنَادِيهِمْ بِالْقُرْبِ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَأَحْضَرَ أَبُو جَهْلٍ حَجَرًا كَبِيرًا، وَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ حُضُورَ رَسُولِ اللهِ لِلصَّلَاةِ بِجِوَارِ بَيْتِ اللهِ.

وَجَاءَ الرَّسُولُ ﷺ كَعَادَتِهِ، وَقَامَ لِيُصَلِّيَ، وَأَبُو جَهْلٍ يَنْتَظِرُ سُجُودَهُ، وَسَادَةُ قُرَيْشٍ فِي نَادِيهِمْ يَنْتَظِرُونَ مَا سَيَفْعَلُ أَبُو جَهْلٍ.

وَعِنْدَمَا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الْحَجَرَ وَهُوَ عَلَيْهِ ثَقِيلٌ، وَاقْتَرَبَ نَحْوَ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ، وَسَارَ عِدَّةَ خُطُوَاتٍ فِي مَشَقَّةٍ مِنْ ثِقَلِ مَا يَحْمِلُ، وَفَجْأَةً، تَوَقَّفَ فِي مَكَانِهِ وَهَرَبَ الدَّمُ مِنْ وَجْهِهِ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَصَارَ أَصْفَرَ، وَعَادَ مُسْرِعًا وَقَدْ جَمُدَتْ يَدَاهُ عَلَى الْحَجَرِ لَا يَسْتَطِيعُ حَتَّى الْخَلَاصَ مِنْهُ!

أَسْرَعَ إِلَيْهِ رِجَالُ قُرَيْشٍ وَخَلَّصُوا الْحَجَرَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَسَاعَدُوهُ حَتَّى عَادُوا إِلَى مَجْلِسِهِمْ، وَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ:

- مَا الَّذِي أَصَابَكَ يَا أَبَا الْحَكَمِ؟

قَالَ وَهُوَ لَا يَزَالُ خَائِفًا:

- قُمْتُ لِأَفْعَلَ مَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ الْبَارِحَةَ، وَمَا إِنِ اقْتَرَبْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ إِذَا بِفَحْلٍ مِنَ الْإِبِلِ ـ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ فِي قُوَّتِهِ وَأَنْيَابِهِ الَّتِي كَشَّرَ عَنْهَا ـ يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَنِي بِهَا!

12

أَرْسَلَ أَبُو طَالِبٍ فِي طَلَبِ جَمِيعِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَجَاءُوهُ مُسْلِمًا وَمُشْرِكًا، وَأَفْهَمَهُمْ أَنَّ الْقُرَشِيِّينَ قَدْ جَرَّبُوا كُلَّ الْحِيَلِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَفَشِلُوا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ، فَقَدْ بَدَءُوا بِالْمُسَاوَمَةِ وَالْجِدَالِ، وَانْتَقَلُوا مِنَ الشِّدَّةِ إِلَى اللِّينِ، وَمِنَ التَّهْدِيدِ إِلَى التَّرْغِيبِ، وَحَكَى لَهُمْ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَطَلَبِهِمْ تَسْلِيمَ مُحَمَّدٍ لَهُمْ لِيَقْتُلُوهُ، وَهَا هُوَ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ قَدْ فَشِلَ فِي قَتْلِهِ، وَلَنْ تَسْتَرِيحَ قُرَيْشٌ إِلَّا إِذَا قَتَلَتْهُ، وَيَضِيعُ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عَارًا عَلَيْنَا، تَتَنَاقَلُهُ الْعَرَبُ طُولَ الزَّمَانِ.

تَسَاءَلَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَنِي هَاشِمٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ:

- نَمْنَعُ مُحَمَّدًا مِمَّنْ يُرِيدُ قَتْلَهُ.

وَافَقَ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ، مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ، عَلَى حِمَايَةِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا عَمَّهُ أَبَا لَهَبٍ الَّذِي اعْتَرَضَ وَانْضَمَّ إِلَى مَنْ يُرِيدُونَ قَتْلَ ابْنِ أَخِيهِ!

تَشَاوَرَ سَادَةُ قُرَيْشٍ فِيمَا يَفْعَلُونَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى مُقَاطَعَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يُصَاهِرُونَهُمْ وَلَا يُبَايِعُونَهُمْ وَلَا يَتَقَبَّلُونَ مِنْهُمْ صُلْحًا، حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا لِيَقْتُلُوهُ، وَكَتَبُوا ذَلِكَ فِي صَحِيفَةٍ عَلَّقُوهَا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ.

اضْطُرَّ أَبُو طَالِبٍ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ قَوْمَهُ وَيَتَحَصَّنُوا فِي شِعْبٍ فِي الْجَبَلِ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَنِي هَاشِمٍ بِأَنْ يَلْحَقُوا بِمَنْ سَبَقَهُمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ؛ حَتَّى لَا يَمُوتُوا جُوعًا، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا

مِنْهُمْ وَثَمَانِيَ عَشْرَةَ امْرَأَةً وَخَرَجُوا مُتَسَلِّلِينَ مُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا. وَمَنْ بَقِيَ دَاخِلَ الشِّعْبِ صَارَ يُعَانِي الْجُوعَ وَالْعَطَشَ؛ حَتَّى كَانَتِ التَّمْرَةُ الْوَاحِدَةُ يَقْتَسِمُهَا اثْنَانِ، وَصَاحِبُ الْحَظِّ السَّعِيدِ مِنْهُمَا هُوَ الَّذِي تَذْهَبُ النَّوَاةُ فِي النِّصْفِ الَّذِي أَخَذَهُ فَيَلُوكُهَا طَوَالَ الْيَوْمِ! بَلْ وَصَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ أَكَلُوا أَوْرَاقَ الشَّجَرِ!!

وَكَانُوا يُرْسِلُونَ مَنْ يَشْتَرِي لَهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا مِنَ التُّجَّارِ الَّذِينَ يَأْتُونَ إِلَى أَسْوَاقِ مَكَّةَ، فَيَقُومُ أَبُو لَهَبٍ وَيَطْلُبُ مِنَ التُّجَّارِ مُضَاعَفَةَ أَثْمَانِ بِضَاعَتِهِمْ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ؛ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ الشِّرَاءَ وَيَعُودَ خَاوِيَ الْوِفَاضِ إِلَى الشِّعْبِ، ثُمَّ يَرْجِعُ التُّجَّارُ إِلَى أَبِي لَهَبٍ فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ ثَمَنَ الْبِضَاعَةِ الَّتِي لَمْ يَبِيعُوهَا.

وَلَوْلَا أَنَّ بَعْضَ الْقُرَشِيِّينَ الَّذِينَ عَارَضُوا هَذِهِ الْمُقَاطَعَةَ كَانُوا يُهَرِّبُونَ لَهُمْ بَعْضَ الْأَطْعِمَةِ لَيْلًا لَمَاتُوا جَمِيعًا مِنَ الْجُوعِ.

وَمَضَتْ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ، وَبَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مُحَاصَرُونَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي الشِّعْبِ بَيْنَ الْجِبَالِ، وَلَمْ يَنَمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَتَيْنِ مُتَتَالِيَتَيْنِ فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ؛ فَقَدْ كَانَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ حَرِيصًا عَلَى سَلَامَتِهِ، وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَنْتَظِرُ حَتَّى يَدْخُلَ كُلُّ النَّاسِ إِلَى فِرَاشِهِمْ.. وَيَنَامُونَ، فَيَذْهَبُ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقُومَ لِيَنَامَ فِي فِرَاشِ غَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ، وَيَنْتَقِلُ صَاحِبُ الْفِرَاشِ لِيَنَامَ فِي فِرَاشِ الرَّسُولِ ﷺ، وَذَلِكَ حَتَّى يَأْمَنَ مَكْرَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُ رَاقَبَ أَيْنَ يَنَامُ الرَّسُولُ ﷺ وَيَتَسَلَّلُ لَيْلًا لِيُؤْذِيَهُ، فَيَنْجُو وَيَقَعُ الْأَذَى عَلَى غَيْرِهِ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اجْتَمَعَ كُلٌّ مِنْ هِشَامِ بْنِ عَمْرٍو وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَجَمِيعُهُمْ مُشْرِكُونَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى نَقْضِ الصَّحِيفَةِ.

وَفِي الصَّبَاحِ، ذَهَبَ الرَّسُولُ الْأَمِينُ ﷺ إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ لَهُ:

- يَا عَمِّ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَلَّطَ الْأَرَضَةَ عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا هُوَ لِلهِ إِلَّا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا وَنَفَتْ مِنْهَا الظُّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ.

سَأَلَهُ أَبُو طَالِبٍ وَقَالَ لَهُ:

- هَلْ أَخْبَرَكَ رَبُّكَ بِهَذَا؟

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ فِي ثِقَةٍ وَقَالَ:

- نَعَمْ.

اسْتَبْشَرَ أَبُو طَالِبٍ خَيْرًا وَخَرَجَ مِنَ الشِّعْبِ وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَهُنَاكَ كَانَ أَبُو جَهْلٍ يَجْلِسُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهُ، وَجَاءَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ، فَطَافَ زُهَيْرٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَقَالَ لَهُمْ:

- يَا أَهْلَ مَكَّةَ.. أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى، لَا يُبَاعُ لَهُمْ وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ؟! وَاللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الظَّالِمَةُ قَاطِعَةُ الرَّحِمِ.

هَبَّ أَبُو جَهْلٍ وَانْدَفَعَ نَاحِيَتَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

- كَذَبْتَ.. وَاللهِ لَا تُشَقُّ.

اعْتَرَضَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ طَرِيقَ أَبِي جَهْلٍ وَقَالَ لَهُ:

- وَاللهِ أَنْتَ الْأَكْذَبُ، فَمَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ.

أَضَافَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ وَقَالَ:

- صَدَقَ زَمْعَةُ، لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا وَلَا نُقِرُّهُ.

وَعَلَّقَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَقَالَ:

- صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، نَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنْهَا وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا.

شَعَرَ أَبُو جَهْلٍ بِأَنَّهُ حُوصِرَ بِآرَاءٍ كُلُّهَا تَرْفُضُ الصَّحِيفَةَ وَمَا جَاءَ بِهَا، وَأَرَادَ أَنْ يُنْهِيَ جَدَلًا لَيْسَ لِصَالِحِهِ، فَقَالَ:

- وَاللهِ هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ وَانْتَهَى.

وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَكَانِهِ فَفُوجِئَ بِأَبِي طَالِبٍ يَأْتِي إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ:

- إِنَّ ابْنَ أَخِي قَدْ أَخْبَرَنِي، وَهُوَ لَمْ يَكْذِبْنِي قَطُّ، بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ سَلَّطَ عَلَى صَحِيفَتِكُمُ الْأَرَضَةَ فَأَتَتْ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ جَوْرٍ وَقَطِيعَةِ رَحِمٍ، فَإِنْ كَانَ الْحَدِيثُ كَمَا يَقُولُ، فَأَفِيقُوا وَارْجِعُوا عَنْ سُوءِ رَأْيِكُمْ، فَوَاللهِ لَا نُسْلِمُهُ حَتَّى نَمُوتَ مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا، وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَقُولُ بَاطِلًا دَفَعْنَاهُ إِلَيْكُمْ فَفَعَلْتُمْ بِهِ مَا تَشَاءُونَ.

قَالُوا جَمِيعًا:

- قَدْ أَنْصَفْتَ.. رَضِينَا بِالَّذِي تَقُولُ.

وَأَسْرَعَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ إِلَى جَوْفِ الْكَعْبَةِ وَأَحْضَرَ الصَّحِيفَةَ، وَفَضَّهَا أَمَامَ أَعْيُنِ الْكُفَّارِ، فَكَانَتْ مِثْلَمَا قَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ، لَيْسَ فِيهَا سِوَى اسْمِ اللهِ، فَمَزَّقَهَا أَمَامَهُمْ وَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الشِّعْبِ.

وَرَغْمَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ رَأَوْا آيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، فَإِنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، فَازْدَادُوا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَعَادُوا ثَانِيَةً لِلسُّخْرِيَةِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَاضْطِهَادِ مَنْ آمَنَ بِهِ!

13

خَـرَجَ الرَّسُـولُ الْكَرِيـمُ ﷺ مِـنْ مِحْنَـةِ الْحِصَـارِ إِلَى مِحْنَةٍ لَـمْ يَتَخَيَّلْهَـا أَحَدٌ عَلَى الْإِطْـلَاقِ، فَقَدْ مَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَتَلَاشَـتِ الدِّرْعُ الَّتِـي كَانَتْ تَتَلَقَّى عَنْهُ ضَرَبَاتِ الْمُشْـرِكِينَ، وَالْمِظَلَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَقِيهِ قَسْوَتَهُمْ وَشُـرُورَهُمْ، وَمَاتَتِ الزَّوْجَةُ وَالْحَبِيبَةُ الَّتِي كَانَتْ سَكَنَهُ وَسَكِينَتَهُ، وَبَاتَ بَيْتُهُ بَارِدًا بِلَا قَلْبٍ يُخَفِّفُ عَنْهُ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ أَذًى مِنَ الْمُشْرِكِينَ خَارِجَ بَابِهِ.

أَحَسَّ الرَّسُولُ ﷺ بِوَحْشَةِ الْغُرْبَةِ فِي بَيْتِهِ وَأَرْضِ مَبْعَثِهِ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْحُزْنِ لِفَقْدِ عَمِّهِ وَزَوْجَتِهِ. وَفَرِحَ الْمُشْـرِكُونَ، فَهَا هُوَ عَدُوُّهُمْ وَعَدُوُّ آلِهَتِهِمْ قَدْ صَارَ وَحِيدًا بِلَا سَنَدٍ، وَلَنْ يَمْنَعَهُمْ أَحَدٌ مِنْ إِيذَائِهِ أَوْ حَتَّى قَتْلِهِ.

رَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يَمُدُّ بَصَرَهُ إِلَى مَا وَرَاءِ مَكَّةَ، فَفَكَّرَ فِي اللُّجُوءِ إِلَى الطَّائِفِ الْقَرِيبَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَتَمَنَّى أَنْ يَجِدَ فِي بَنِي ثَقِيفٍ نَاصِرًا لَهُ وَلِدَعْوَتِهِ، لَكِنَّهُ حِينَ تَسَلَّلَ إِلَيْهِمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْـلَامَ كَانُوا أَشَـدَّ كُفْـرًا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْـشٍ؛ فَطَرَدُوهُ وَسَـخِرُوا مِنْهُ وَحَرَّضُوا عَبِيدَهُمْ وَسُـفَهَاءَهُمْ يَسُـبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ عَلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ الصِّبْيَـةُ حَوْلَ الْمَجَانِينِ، بَلْ وَيَقْذِفُونَهُ بِالْحِجَارَةِ أَيْضًا!!

ظَلَّ عَبِيدُ وَسُـفَهَاءُ الطَّائِفِ يَقْذِفُونَ الرَّسُـولَ الْكَرِيمَ ﷺ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ مِـنْ قَدَمَيْهِ الشَّـرِيفَتَيْنِ، فَفَرَّ مِنْهُـمْ وَاحْتَمَى فِي حَائِطِ بُسْـتَانٍ لِعُتْبَةَ وَشَـيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ، فَرَجَعَ الْعَبِيدُ وَالسُّـفَهَاءُ عَنْهُ، وَلَمَّا اطْمَأَنَّ أَنَّهُمْ صَارُوا بَعِيدًا وَلَنْ يَعُودُوا، رَفَعَ رَأْسَـهُ حَزِينًا يَدْعُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَقُولُ:

- اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ. لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ.

سَمِعَ ابْنَا رَبِيعَةَ دُعَاءَ الرَّسُولِ ﷺ فَرَقَّ قَلْبُهُمَا لِحَالِهِ، وَأَرْسَلَا لَهُ عُنْقُودًا مِنَ الْعِنَبِ مَعَ خَادِمِهِمَا عَدَّاسٍ النَّصْرَانِيِّ، فَقَبِلَ الرَّسُولُ ﷺ الْهَدِيَّةَ، وَبَدَأَ بِاسْمِ اللهِ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ. فَتَعَجَّبَ عَدَّاسٌ وَقَالَ:

- هَذَا الْكَلَامُ لَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ.

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ؟ وَمَا دِينُكَ؟

قَالَ عَدَّاسٌ:

- أَنَا نَصْرَانِيٌّ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى.

عَلَّقَ عَدَّاسٌ وَقَالَ:

- وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ.

أَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ يُقَبِّلُهَا. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنِ ابْنَيْ رَبِيعَةَ لِلْآخَرِ:

- قَدْ أَفْسَدَ الرَّجُلُ غُلَامَنَا عَلَيْنَا.

فَلَمَّا جَاءَ عَدَّاسٌ قَالَا لَهُ:

- وَيْحَكَ.. مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتَ؟

قَالَ عَدَّاسٌ:

- مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ يَا سَيِّدِي، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ.

قَالَا لَهُ يُحَذِّرَانِهِ:

- وَيْحَكَ يَا عَدَّاسُ، لَا يَصْرِفَنَّكَ الرَّجُلُ عَنْ دِينِكَ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ!

عَادَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ إِلَى مَكَّةَ، لَمْ يَجْنِ مِنْهَا إِلَّا جِرَاحًا أَثْخَنَتْ قَدَمَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ وَأَدْمَتْهُمَا، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْمُلُ أَنْ يَجِدَ فِيهَا مَلْجَأً آمِنًا، وَيَجِدَ فِي بَنِي ثَقِيفٍ حُمَاةً وَدَاعِمِينَ لَهُ بَدِيلًا عَنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ وَاضْطَهَدُوا مَنْ آمَنَ بِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِمْ غَيْرَ الْكُفْرِ الَّذِي يُعَشِّشُ فِي الْقُلُوبِ.

لَمْ يَيْأَسِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَلَمْ يُوَافِقْ عَلَى أَنْ يَنْقُلَ مَلَكُ الْجِبَالِ الْأَخْشَبَيْنِ وَيَدُكَّ بِهِمَا أَهْلَ مَكَّةَ، جَزَاءً عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِهِ وَبِالْمُسْلِمِينَ، عَلَى أَمَلِ أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْوَاحِدِ، وَيَعْبُدُهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ.

لَمْ يَتَزَعْزَعْ يَقِينُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَهُ وَنَجَاحِ دَعْوَتِهِ، فَمَا يَحْدُثُ لَهُ حَدَثَ لِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ، وَقَدْ نَجَحُوا فِي دَعْوَتِهِمْ وَبَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ.

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الِابْتِلَاءَ رَحْمَةٌ، وَإِعْدَادٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَحَمُّلِ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ بَعْدَ نَجَاحِهِ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، فَامْتَثَلَ لِأَمْرِ اللهِ، فَمَا هُوَ إِلَّا مُبَشِّرٌ وَنَذِيرٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِمْ فِي نُجُوعِهِمْ بَدَلًا مِنَ الِانْتِظَارِ إِلَى أَنْ يَأْتُوا هُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ وَالتِّجَارَةِ، وَبَدَأَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ، وَأَبُو لَهَبٍ مِنْ وَرَائِهِ، حِينَ يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ لِلنَّاسِ:

- إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أُبَيِّنَ عَلَى اللهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ.

فَيَصِيحُ أَبُو لَهَبٍ مُكَذِّبًا لَهُ وَيَقُولُ:

- إِنَّمَا يَدْعُوكُمْ هَذَا إِلَى أَنْ تَسْلَخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تُطِيعُوهُ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.

وَيَتْلُو الرَّسُولُ ﷺ آيَاتِ اللهِ يُبَشِّرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْوَاحِدِ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَيُنْذِرُ مَنْ يَظَلُّ عَلَى شِرْكِهِ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ. فَيَسْتَجِيبُ الْقَلْبُ الْكَافِرُ لِدَعْوَةِ الثَّبَاتِ عَلَى الْكُفْرِ، الَّتِي يَدْعُو بِهَا أَبُو لَهَبٍ، وَيَنْغَلِقُ أَمَامَ الدَّعْوَةِ لِلْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَافِضًا التَّفْكِيرَ وَالتَّدَبُّرَ فِي قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

آهٍ لَوْ تَدَبَّرَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفُوا مَنْ هُوَ الْخَالِقُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ أَنْ يُعْبَدَ، لَكِنَّهَا إِرَادَةُ اللهِ، وَلِلهِ فِي خَلْقِهِ شُئُونٌ.

وَيُوَاصِلُ الْأَمِينُ ﷺ دَعْوَتَهُ عَلَى أَمَلِ أَنْ تَتَفَتَّحَ قُلُوبُهُمْ وَيُؤْمِنُوا، لَكِنَّهُ كَانَ يَجِدُ عُقُولًا صَمَّاءَ كَالْحِجَارَةِ، وَقُلُوبًا غِلَاظًا كَالْجِبَالِ! وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ.. يَعُودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى مَكَّةَ دُونَ أَنْ يَجِدَ أُذُنًا سَمِعَتْ، وَلَا عَقْلًا وَعَى وَفَهِمَ، وَلَا قَلْبًا رَقَّ وَآمَنَ.

14

وَذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْبَعْثَةِ، صَلَّى الرَّسُولُ ﷺ الْعِشَاءَ فِي الْحَرَمِ الْمُقَدَّسِ وَنَامَ فِي حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ. وَقَبْلَ الْفَجْرِ، جَاءَهُ جِبْرِيلُ وَأَيْقَظَهُ، وَصَحِبَهُ إِلَى دَابَّةٍ بَيْضَاءَ نَاصِعَةِ الْبَيَاضِ، أَكْبَرَ مِنَ الْحِمَارِ وَأَقَلَّ مِنَ الْبَغْلِ تَقِفُ فِي انْتِظَارِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَرْكَبَهَا، وَحِينَ اسْتَقَرَّ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ انْطَلَقَتْ بِهِ مِثْلَ الْبَرْقِ، تَضَعُ حَافِرَهَا عِنْدَ حُدُودِ أُفُقِ رُؤْيَتِهَا، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى وَصَلَتْ بِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي اسْتِقْبَالِهِ، فَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا، ثُمَّ صَعِدَ بِهِ جِبْرِيلُ a إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى، فَفُتِحَتْ أَمَامَهُمَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ، حَتَّى وَصَلَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَتَنَحَّى جِبْرِيلُ a جَانِبًا وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ، فَوَاصَلَ الرَّسُولُ ﷺ سَيْرَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَسَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ صَوْتَ رَبِّهِ كَمَا سَمِعَهُ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

وَلِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ، فَقَدْ قَبِلَ أَنْ يُؤَدِّيَ الْمُسْلِمُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ ثَوَابُ عَشْرٍ. وَحِينَ انْتَهَى لِقَاءُ التَّكْرِيمِ وَالتَّكْلِيفِ، وَانْسَحَبَ النُّورُ مِنَ السِّدْرَةِ، عَادَ جِبْرِيلُ a بِصَاحِبِهِ إِلَى الْأَرْضِ، بَعْدَ تَجْرِبَةٍ لَمْ تَحْدُثْ فِي تَارِيخِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، خَصَّ بِهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ الصَّادِقَ الْأَمِينَ، لِيُكَلِّفَهُ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ.. فِي سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى حَيْثُ لَمْ يَقِفْ بَشَرٌ مِنْ قَبْلُ، لِيَعْرِفَ أَتْبَاعُهُ أَنَّ

الصَّلَاةَ مِعْرَاجٌ تَعْرُجُ فِيهِ أَرْوَاحُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى اللهِ، وَتَكُونُ فِي حَضْرَتِهِ، فَأَيُّ شَرَفٍ هَذَا الَّذِي خَصَّهُ اللهُ لِرَسُولِهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟!

كَانَتِ الدَّابَّةُ الْبَيْضَاءُ الْبُرَّاقَةُ فِي انْتِظَارِهِ، فَقَفَزَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى ظَهْرِهَا، وَأَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَى مَكَّةَ، مَرَّتْ عَلَى قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ آتِيَةٍ مِنَ الشَّامِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا جَمَلٌ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، وَاحِدَةٌ سَوْدَاءُ وَالْأُخْرَى بَيْضَاءُ، وَحِينَ مَرَّتْ دَابَّةُ الرَّسُولِ بِالسُّرْعَةِ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا مِنْ جَانِبِهِ، خَافَ الْبَعِيرُ وَنَفَرَ مُهَرْوِلًا فَوَقَعَ وَكُسِرَتْ سَاقُهُ.

نَامَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَكَانِهِ، وَحِينَ أَصْبَحَ كَانَ حَائِرًا فِي أَمْرِهِ، هَلْ يُعْلِنُ لِلنَّاسِ عَنْ رِحْلَةِ إِسْرَائِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعُرُوجِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ؟

هَلْ يُخْبِرُهُمْ بِالصَّلَاةِ بِالْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى؟

هَلْ يُخْبِرُهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِ فِي سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى؟

هَلْ سَيُصَدِّقُهُ النَّاسُ، الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ وَالْمُشْرِكُونَ؟

بَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيْنَمَا هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَفَكَّرُ فِي حَالِهِ، مَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَلَسَ بِجِوَارِهِ، وَقَالَ لَهُ مُسْتَهْزِئًا:

- هَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ جَدِيدٌ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ؟!

أَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- نَعَمْ.

سَأَلَ أَبُو جَهْلٍ وَقَالَ:

- وَمَا هُوَ؟

أَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ.

سَأَلَ أَبُو جَهَلٍ وَقَالَ:

- إِلَى أَيْنَ؟

رَدَّ ابْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ وَقَالَ:

- إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

تَسَاءَلَ أَبُو جَهَلٍ فِي سُخْرِيَةٍ وَقَالَ:

- أُسْرِيَ بِكَ فِي اللَّيْلِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَنَا؟!

رَدَّ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ وَقَالَ:

- نَعَمْ.

كَانَتْ فُرْصَةً عَظِيمَةً لِأَبِي جَهَلٍ لِأَنْ يَسْخَرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَيُثْبِتَ لِلنَّاسِ كَذِبَ ادِّعَائِهِ، وَيَنْسِفَ دَعْوَتَهُ مِنْ جُذُورِهَا، فَتَسَاءَلَ فِي خُبْثٍ وَقَالَ:

- هَلْ إِذَا دَعَوْتُ قَوْمَكَ إِلَيْكِ، تُخْبِرُهُمْ بِمَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ؟

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ فِي ثِقَةٍ وَقَالَ:

- نَعَمْ.

وَقَفَ أَبُو جَهَلٍ يَصِيحُ يَدْعُو الْقَوْمَ، فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ، وَحِينَ اجْتَمَعُوا حَوْلَهُ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ:

- أَخْبِرْ قَوْمَكَ بِمَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

دُهِشَ النَّاسُ جَمِيعًا، وَصَارُوا يَضْرِبُونَ كَفًّا عَلَى كَفٍّ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِكَفِّهِ مِنْ شِدَّةِ تَعَجُّبِهِ، وَكُلُّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ وَيَقُولُونَ:

- هَلْ يُعْقَلُ هَذَا؟! الرِّحْلَةُ الَّتِي تَسْتَغْرِقُ شَهْرًا فِي الذَّهَابِ وَمِثْلَهُ فِي الْعَوْدَةِ، يَقُومُ بِهَا مُحَمَّدٌ فِي أَقَلَّ مِنْ لَيْلَةٍ، هَذَا هُوَ الْجُنُونُ بِعَيْنِهِ!

سَأَلَ أَقَلُّهُمْ تَعَجُّبًا وَقَالَ:

- وَمَا عَلَامَةُ قَوْلِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ؟

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- مَرَرْتُ وَأَنَا قَادِمٌ بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ فَنَفَرَتْ مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ، وَفِيهَا بَعِيرٌ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ وَالْأُخْرَى بَيْضَاءُ فَصُرِعَ هَذَا الْبَعِيرُ وَانْكَسَرَ.

رَدَّ الرَّجُلُ وَقَالَ:

- هَذِهِ لَنْ نَسْتَطِيعَ التَّحَقُّقَ مِنْهَا إِلَّا إِذَا جَاءَتِ الْعِيرُ وَسَأَلْنَا الرِّجَالَ.

سَأَلَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مُتَعَجْرِفًا وَقَالَ:

- هَلْ تَصِفُ لَنَا الْمَسْجِدَ الَّذِي بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ إِنَّ مِنَّا مَنْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَآهُ.

رَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يَصِفُ لَهُمْ مَا يَتَذَكَّرُهُ مِنْ وَصْفِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَصْفًا دَقِيقًا، وَبَدَا لِلنَّاسِ أَنَّ هُنَاكَ أَمَاكِنَ تَحَيَّرَ فِي وَصْفِهَا، فَرَفَعَهُ اللهُ أَمَامَهُ فِي الْفَضَاءِ، فَصَارَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيُخْبِرُ النَّاسَ بِوَصْفِهِ، وَحِينَ انْتَهَى، قَالَ الَّذِينَ رَأَوْهُ مِنْ قَبْلُ لِمَنْ حَوْلَهُمْ:

- وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ فِي وَصْفِهِ.

وَقَالَ آخَرُ:

- إِذَنْ، نَنْتَظِرُ حَتَّى تَأْتِيَ الْقَافِلَةُ وَنَرَى إِنْ كَانَ حَدِيثُهُ عَنِ الْجَمَلِ صَادِقًا أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

انْفَضَّ قَوْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ حَوْلِهِ، مُتَعَجِّبِينَ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَقَالُوا لَهُ:

- مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ؟ يَقُولُ إِنَّهُ أَتَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَرَجَعَ فِي لَيْلَتِهِ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:

- إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ هَذَا.. فَقَدْ صَدَقَ.

تَعَجَّبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُرْعَةِ تَصْدِيقِ أَبِي بَكْرٍ لِمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ:

- إِنَّا لَنُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ هَذَا... نُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ.

صَدَقْتَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ يُصَدِّقُونَهُ فِيمَا يَرْوِيهِ مِنْ وَحْيِ الْقُرْآنِ الْآتِي مِنَ السَّمَاءِ وَيَتَّبِعُونَهُ، أَفَلَا يُصَدِّقُونَهُ فِي إِسْرَائِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَالْعَوْدَةِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ؟

15

وَبَعِيدًا عَنْ مَكَّةَ، كَانَتْ يَثْرِبُ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَخَوَيْنِ، لِكُلٍّ قَبِيلَتُهُ الَّتِي يَحْكُمُهَا، وَبِمُرُورِ الْأَيَّامِ تَحَوَّلَ أَبْنَاءُ الْعُمُومَةِ إِلَى أَعْدَاءٍ أَلِدَّاءَ يَتَحَارَبُونَ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَبْحَثُ عَنْ حَلِيفٍ يُعَاوِنُهُ عَلَى قِتَالِ بَنِي عَمِّهِ، حَتَّى قَبَائِلُ الْيَهُودِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ كَانُوا يَتَحَالَفُونَ مَعَهَا ضِدَّ بَعْضِهِمْ!

وَفِي السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْبَعْثَةِ، كَانَتْ هُنَاكَ حَرْبٌ طَاحِنَةٌ بَيْنَ الْخَزْرَجِ وَحُلَفَائِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِمُ الْأَوْسِ، وَقَدْ أَنْهَكَتْهُمْ جَمِيعًا وَمَا زَالَ لَهِيبُهَا مُشْتَعِلًا، وَرَغْمَ ذَلِكَ، هَبَطَ عَدَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَكَّةَ لِحَجِّ بَيْتِ اللهِ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَطُوفُ بِالْقَبَائِلِ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَحَالَفُوا مَعَهُ عَلَى نُصْرَةِ الدِّينِ. وَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، سَمِعَ أَصْوَاتَ رِجَالٍ يَتَكَلَّمُونَ، فَأَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ حَتَّى لَحِقَ بِهِمْ، وَكَانُوا سِتَّةً مِنْ شَبَابِ الْخَزْرَجِ، فَقَالَ لَهُمْ:

- مَنْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا:

- نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ.

فَسَأَلَهُمْ ﷺ:

- مِنْ حُلَفَاءِ الْيَهُودِ؟

فَأَجَابُوا :

- نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُمْ ﷺ:

- أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمْكُمْ؟

وَجَلَسُوا مَعَهُ ﷺ، فَشَرَحَ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ وَدَعْوَتَهُ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَفَتَحَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلْإِيمَانِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

- تَعْلَمُونَ وَاللهِ يَا قَوْمُ، إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ الْيَهُودُ، فَلَا يَسْبِقْنَا أَحَدٌ إِلَيْهِ، وَنَأْمُلُ أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ سَبَبًا لِوَضْعِ الْحَرْبِ.

ثُمَّ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ:

- إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ.

وَعَدَ شَبَابُ الْخَزْرَجِ الْمُسْلِمُونَ رَسُولَهُمْ بِلِقَاءٍ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ، وَحَمَلُوا رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ وَعَادُوا بِهَا إِلَى دِيَارِهِمْ، وَرَاحُوا يُبَشِّرُونَ بِظُهُورِ النَّبِيِّ الْمُنْتَظَرِ ﷺ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ كُلِّهَا إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَدَارَتْ دَوْرَةُ الدُّنْيَا وَجَاءَ مَوْسِمُ الْحَجِّ لِلسَّنَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ لِلْبَعْثَةِ، وَالْتَقَى الرَّسُولُ ﷺ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ بِوَفْدٍ مِنْ رِجَالِ يَثْرِبَ، خَمْسَةٌ مِنْهُمْ مِنْ شَبَابِ الْعَامِ الْمَاضِي، وَسَبْعَةٌ جُدُدٌ. صَمَتُوا جَمِيعًا فِي انْتِظَارِ مَا يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ:

- بَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ.

قَالُوا جَمِيعًا:

- بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

وَانْتَهَى مَوْسِمُ الْحَجِّ، وَعَادَ أَهْلُ يَثْرِبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَايَعُوا الرَّسُولَ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَنْ يُصَاحِبَهُمْ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ هُنَاكَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ.

نَزَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي دَارِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فِي مِنًى، وَبَدَآ مَعًا فِي نَشْرِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، حَتَّى وَصَلَ خَبَرُهُمَا إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، سَيِّدِ الْأَوْسِ وَلَمْ يَزَلْ مُشْرِكًا، فَاسْتَدْعَى ابْنَ عَمِّهِ أُسَيْدَ ابْنَ حُضَيْرٍ وَقَالَ لَهُ:

- يَا ابْنَ عَمِّ، أَلَا تَذْهَبُ إِلَى هَذَا الَّذِي يَفْتِنُ ضُعَفَاءَنَا فَتَنْهَاهُ عَمَّا يَفْعَلُ؟

ذَهَبَ أُسَيْدٌ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَحِينَ رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا، قَالَ لِمُصْعَبٍ:

- هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ، فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ.

رَدَّ مُصْعَبٌ قَائِلًا:

- إِنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ.

وَصَلَ أُسَيْدٌ إِلَيْهِمَا، فَبَادَرَ مُصْعَبًا بِالْحَدِيثِ وَقَالَ لَهُ:

- مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هُنَا لِتُسَفِّهَ ضُعَفَاءَنَا؟ إِنْ لَمْ تَكُفَّ عَمَّا تَفْعَلُهُ فَسَتَخْسَرُ نَفْسَكَ!

رَدَّ مُصْعَبٌ فِي هُدُوءٍ وَقَالَ:

- أَلَا تَجْلِسُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ أَعْجَبَكَ مَا أَقُولُ..فَاقْبَلْهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كَفَفْتُ عَنْهُ.

عَلَّقَ أُسَيْدٌ وَفِي وَجْهِهِ إِشْرَاقَةٌ وَبَشَاشَةٌ وَقَالَ:

- أَنْصَفْتَ.

جَلَسَ أُسَيْدٌ، وَرَاحَ مُصْعَبٌ يَتْلُو عَلَيْهِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا هُدًى وَبَلَاغٌ مِنَ اللهِ. فَانْشَرَحَ قَلْبُ أُسَيْدٍ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، فَعَادَ لِابْنِ عَمِّهِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَقَالَ لَهُ:

- لَمْ أَجِدْ شَيْئًا يُرِيبُ فِي الرَّجُلَيْنِ.

اغْتَاظَ سَعْدٌ وَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ لِلرَّجُلَيْنِ بِنَفْسِهِ، وَحِينَ رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا، قَالَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ:

- جَاءَكَ وَاللهِ سَيِّدٌ مِنْ وَرَائِهِ قَوْمُهُ، إِنْ يَتَّبِعْكَ.. فَلَنْ يَتَخَلَّفْ عَنْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ كَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِمَا، وَرَاحَ يَسُبُّهُمَا، فَتَحَمَّلَهُ الرَّجُلَانِ حَتَّى أَفْرَغَ مَا فِي عَقْلِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ:

- أَلَا تَقْعُدُ فَتَسْمَعَ؟

جَلَسَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَرَاحَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يَتْلُو عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَبَدَأَ الْغَضَبُ يَهْرُبُ مِنْ وَجْهِهِ وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ الْبَشَاشَةُ وَالْهُدُوءُ وَالرِّضَا، ثُمَّ قَالَ:

- كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَسْلَمْتُمْ؟

قَالَ مُصْعَبٌ:

- تَغْتَسِلُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ.

فَعَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مَا طُلِبَ مِنْهُ، وَأَعْلَنَ شَهَادَتَهُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَعَادَ إِلَى قَوْمِهِ يَقُولُ لَهُمْ:

- مَا تَعُدُّونِي فِيكُمْ؟

أَجَابَهُ الرِّجَالُ وَقَالُوا:

- أَنْتَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا.

فَقَالَ لَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي حَزْمٍ وَجِدِّيَّةٍ:

- كَلَامُ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

وَلَمْ يَأْتِ الْمَسَاءُ إِلَّا وَكَانَتِ الْأَوْسُ كُلُّهَا مُسْلِمَةً! وَسُرْعَانَ مَا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي يَثْرِبَ كُلِّهَا، وَلَمْ يَبْقَ لِأَهْلِهَا حَدِيثٌ غَيْرُهُ، وَأَرْسَلَ مُصْعَبٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يُبَشِّرُهُ بِأَنَّ نُورَ الْإِسْلَامِ أَضَاءَ ظُلُمَاتِ قُلُوبِ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَاسْتَبْشَرَ الرَّسُولُ ﷺ خَيْرًا وَأَمَلَ أَنْ تَكُونَ يَثْرِبُ هِيَ حَاضِنَةَ الدَّعْوَةِ وَمِنْهَا تَنْطَلِقُ إِلَى الْعَالَمِينَ.

يَا سُبْحَانَ اللهِ! فِي يَثْرِبَ حَضَّ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَسْلَمُوا بِكُلِّ سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَأَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ بِاللهِ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا لَهُ، حَتَّى أَسْلَمَتْ يَثْرِبُ كُلُّهَا، بَيْنَمَا الرَّسُولُ ﷺ فِي مَكَّةَ يُعَانِي إِصْرَارَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى إِيذَائِهِ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ.

16

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَجَاءَ مَوْسِمُ الْحَجِّ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ، وَأَخَذَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُونَ حَجَّ بَيْتِ اللهِ وَلِقَاءَ رَسُولِهِ ﷺ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ، تَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا:

- إِلَى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَطُوفُ جِبَالَ مَكَّةَ وَوُدْيَانَهَا وَهُوَ خَائِفٌ، وَيُطْرَدُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ؟

اتَّفَقَ مُسْلِمُو يَثْرِبَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَخْرُجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَيْهِمْ، وَيَكُونَ وَسَطَهُمْ، وَقَرَّرُوا أَنْ يَعْرِضُوا عَلَيْهِ أَمْرَ الْهِجْرَةِ إِلَيْهِمْ.

وَحِينَ وَصَلَ رَكْبُ الْحَجِيجِ إِلَى مَكَّةَ، أَرْسَلُوا مَنْ يُخْبِرُ الرَّسُولَ ﷺ بِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَبَعْدَ عِدَّةِ اتِّصَالَاتٍ سِرِّيَّةٍ، اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَلْتَقُوا بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ أَوَاسِطِ لَيَالِي التَّشْرِيقِ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فِي مِنًى.

وَفِي اللَّيْلَةِ الْمَوْعُودَةِ، وَبَعْدَ أَنْ مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ وَنَامَ النَّاسُ فِي رِحَالِهِمْ، تَسَلَّلُوا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْآخَرِ يَأْخُذُونَ طَرِيقَهُمْ إِلَى شِعْبِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، حَتَّى صَارَ عَدَدُهُمْ ثَلَاثَةً وَسَبْعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَتَيْنِ، وَجَلَسُوا جَمِيعًا فِي انْتِظَارِ الرَّسُولِ ﷺ. وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الِانْتِظَارُ، إِلَّا وَجَاءَهُمُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ يُصَاحِبُهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَزَالُ مُشْرِكًا.

ابْتَدَأَ الْعَبَّاسُ الْكَلَامَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَافَقَ عَلَى مَا دَعَوْهُ إِلَيْهِ، وَاخْتَارَ الِانْحِيَازَ لَهُمْ وَاللِّحَاقَ بِهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِخُطُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي أَلْقَوْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ،

وَنَبَّهَهُمْ إِنْ كَانُوا غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى حِمَايَتِهِ فَلْيَتْرُكُوهُ مِنَ الْآنَ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ، فَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى حِمَايَتِهِ. وَهُنَا غَضِبَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ وَهُوَ كَبِيرُ الْقَوْمِ وَقَالَ:

- وَاللهِ لَوْ كَانَ فِي أَنْفُسِنَا غَيْرَ مَا نَنْطِقُ بِهِ لَقُلْنَاهُ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ الْوَفَاءَ وَالصِّدْقَ، وَبَذْلَ أَنْفُسِنَا دُونَهُ.

وَصَاحَ الْقَوْمُ وَقَالُوا لِلرَّسُولِ ﷺ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، خُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ.

تَكَلَّمَ الرَّسُولُ ﷺ فَقَرَأَ الْقُرْآنَ وَدَعَا إِلَى اللهِ، وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ:

- تُبَايِعُونَنِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ.

وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ.

وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَعَلَى أَنْ تَقُومُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ.

وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ إِلَيْكُمْ.

وَعَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ.

صَاحَ وَاحِدٌ مِنَ الْمَوْجُودِينَ وَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَهُودِ عُهُودًا، فَهَلْ إِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ تَرْجِعُ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعُنَا؟

ابْتَسَمَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ.

قَالُوا:

- ابْسُطْ يَدَكَ نُبَايِعْكَ.

وَبَدَأَ النَّاسُ مُبَايَعَةَ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَامُوا يُصَافِحُونَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ، حَتَّى جَاءَتِ النِّسَاءُ فِي آخِرِهِمْ فَبَايَعَنَهُ بِالْقَوْلِ وَلَيْسَ بِالْمُصَافَحَةِ.

وَانْتَهَى مَوْسِمُ الْحَجِّ، وَعَادَ وَفْدُ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ إِلَى يَثْرِبَ، وَقَدْ صَارَتْ مُسْلِمَةً، وَبَلَغَ مَكَّةَ مَا صَارَ إِلَيْهِ حَالُهَا، وَأَدْرَكَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ فِي خَطَرٍ؛ فَطَرِيقُ الْقَوَافِلِ يَمُرُّ بِيَثْرِبَ، فَبَدَءُوا يُرَاقِبُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَضَيَّقُوا الْخِنَاقَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَأَمَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ إِلَى يَثْرِبَ، فَبَدَءُوا يَتَسَلَّلُونَ إِلَيْهَا خُفْيَةً، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٍّ وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الِانْتِقَالِ، وَحِينَ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ يَعْرِضُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ الْهِجْرَةَ إِلَى يَثْرِبَ لِلِّحَاقِ بِالْمُسْلِمِينَ، قَالَ لَهُ ﷺ:

- عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ:

- وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ؟

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- نَعَمْ.

بَدَأَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَعِدُّ لِلْهِجْرَةِ، وَأَخَذَ فِي إِعْدَادِ نَاقَتَيْنِ لَهُ وَتَغْذِيَتِهِمَا؛ حَتَّى تَقْوَيَا عَلَى تَحَمُّلِ مَشَاقِّ السَّفَرِ، فِي انْتِظَارِ أَمْرِ اللهِ بِالرَّحِيلِ.

أَمَّا قُرَيْشٌ، فَقَدْ رَأَتْ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَتْهُ مِنِ اضْطِهَادٍ وَتَعْذِيبٍ لِلْمُسْلِمِينَ لَمْ يَأْتِ بِنَتِيجَةٍ، فَهَاهُمْ قَدْ فَرُّوا أَوَّلًا إِلَى الْحَبَشَةِ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِعَادَتَهُمْ، وَقَدْ فَرُّوا الْآنَ إِلَى يَثْرِبَ

وَتَحَالَفُوا مَعَ الْخَزْرَجِ، وَالْخَزْرَجُ مُتَحَالِفُونَ مَعَ الْيَهُودِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْأَيَّامَ الْقَادِمَةَ لَا تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا الْحُرُوبَ وَالْكَوَارِثَ وَفَقْدَ الْجَاهِ وَالْأَمْوَالِ وَالسُّلْطَانِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ مِنَ الْعَامِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الْبَعْثَةِ، اجْتَمَعَ سَادَةُ قُرَيْشٍ فِي نَادِيهِمْ يَتَآمَرُونَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ:

- نُخْرِجُهُ مِنْ أَرْضِنَا وَنَسْتَرِيحُ مِنْهُ.

رَفَضُوا جَمِيعًا هَذَا الرَّأْيَ؛ فَإِذَا خَرَجَ فَسَيَجِدُ مَنْ يُنَاصِرُهُ وَيَتَحَالَفُ مَعَهُ، وَيَعُودُ لِقِتَالِهِمْ.. فَقَالَ آخَرُ:

- نَحْبِسُهُ فِي دَارِهِ حَتَّى يَمُوتَ جُوعًا.

رَفَضَ الْجَمِيعُ هَذَا الرَّأْيَ أَيْضًا؛ فَلَوْ عَرَفَ أَنْصَارُهُ بِيَثْرِبَ بِالْأَمْرِ لَأَتَوْا لِيُخَلِّصُوهُ، وَلَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ. وَهُنَا قَالَ شَيْخٌ مِنْهُمْ:

- الرَّأْيُ عِنْدِي هُوَ أَنْ تَشْتَرِكَ جَمِيعُ بُطُونِ قُرَيْشٍ وَعَشَائِرِهَا فِي قَتْلِهِ.

وَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، فَحِينَ يَفْعَلُونَ هَذَا، وَتُرْسِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ شَابًّا مِنْهَا وَيَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، سَوْفَ يَتَفَرَّقُ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَلَنْ تَقْدِرَ عَشِيرَتُهُ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، وَيَنْتَهِي الْأَمْرُ بِأَنْ يَقْبَلُوا دِيَتَهُ.

لَمْ يَعْرِفِ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ اللهَ يَرَى وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ، فَقَدْ أَوْحَى لِنَبِيِّهِ بِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُهَاجِرَ إِلَى يَثْرِبَ لِيَلْحَقَ بِأَصْحَابِهِ هُنَاكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي بَدَأَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ الْإِعْدَادَ لِتَنْفِيذِ خُطَّتِهِمْ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ بَدَأَ الْإِعْدَادَ لِهِجْرَتِهِ إِلَى يَثْرِبَ، فَانْتَظَرَ حَتَّى حَمِيَتْ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ، وَتَرَاقَصَ الصَّهْدُ كَالشَّيَاطِينِ فِي الطُّرُقَاتِ، وَهَرَبَ النَّاسُ إِلَى بُيُوتِهِمْ،

وَخَلَتِ الشَّوَارِعُ مِنَ الْعُيُونِ، فَوَضَعَ وِشَاحًا عَلَى وَجْهِهِ وَأَخْفَاهُ، وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي دَارِهِ، لِيُخْبِرَهُ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَهُ بِالْهِجْرَةِ.

طَلَبَ أَبُو بَكْرٍ d مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُصَاحِبَهُ فَوَافَقَ، وَسَالَتْ دُمُوعُ الصِّدِّيقِ عَلَى خَدَّيْهِ فَرَحًا بِصُحْبَتِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي هِجْرَتِهِ، وَجَلَسَا يَضَعَانِ خُطَّةً يَفِرَّانِ بِهَا مِنْ مُلَاحَقَةِ قُرَيْشٍ لَهُمَا.

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعْرِفُ أَنَّ قُرَيْشًا سَتُرْسِلُ مَنْ يَرُدُّهُمَا فَوْرَ اكْتِشَافِهَا خُرُوجَهُمَا، وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تُرْسِلَ مَنْ يَبْحَثُ فِي الطُّرُقِ الْمُتَّجِهَةِ شَمَالًا فِي اتِّجَاهِ يَثْرِبَ، فَاقْتَرَحَ عَلَى الصِّدِّيقِ أَنْ يَسْلُكَا طَرِيقًا مُضَادًّا تَمَامًا، وَيَخْتَفِيَا حَتَّى يَهْدَأَ الطَّلَبُ عَلَيْهِمَا، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُ جَبَلِ ثَوْرٍ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمَنِ، وَهُوَ جَبَلٌ شَامِخٌ، دُرُوبُهُ وَعْرَةٌ وَأَحْجَارُهُ كَثِيرَةٌ، وَكَانَ هُوَ الْمَلَاذَ الَّذِي سَيَخْتَفِيَانِ فِي أَحَدِ أَغْوَارِهِ.

وَعَادَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى دَارِهِ، يُمَارِسُ حَيَاتَهُ الْيَوْمِيَّةَ بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ؛ حَتَّى لَا يَشْعُرَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرًا. عَلَى أَنْ يَعُودَ إِلَى صَاحِبِهِ بَعْدَ أَنْ يُحْكِمَ الظَّلَامُ قَبْضَتَهُ عَلَى الشَّوَارِعِ وَالْبُيُوتِ.

أَمَّا أَبُو بَكْرٍ d فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُرَيْقِطٍ، وَهُوَ مُشْرِكٌ مَشْهُورٌ بِمَعْرِفَتِهِ بِطُرُقِ الصَّحْرَاءِ وَدُرُوبِهَا، حَتَّى غَيْرِ الْمَأْهُولَةِ مِنْهَا، وَاسْتَأْجَرَهُ لِيَكُونَ دَلِيلَهُ فِي رِحْلَتِهِ، وَأَعْطَاهُ النَّاقَتَيْنِ لِيَرْعَاهُمَا عِنْدَهُ، وَقَدْ حُمِّلَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا بِجِرَابٍ كَبِيرٍ مَمْلُوءٍ بِالزَّادِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُ عِنْدَ جَبَلِ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ.

وَحِينَ جَاءَ لَيْلُ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ لِلسَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ، وَتَعَانَقَ الظَّلَامُ مَعَ سَوَادِ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، تَسَلَّلَ شَبَابُ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ شَابًّا يَرْتَدُونَ ثَوْبَ الْغَدْرِ الْأَسْوَدِ، وَكَمَنُوا فِي صَفَّيْنِ أَمَامَ بَابِ دَارِ الرَّسُولِ ﷺ، وَانْتَظَرُوا

أَنْ يَخْرُجَ كَعَادَتِهِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيُصَلِّيَ فِيهِ صَلَاةَ الْقِيَامِ، لِتَنْزِلَ عَلَيْهِ سُيُوفُهُمْ فِي ضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَهْرُبُونَ كَالْخَفَافِيشِ فِي الظَّلَامِ، وَيَضِيعُ دَمُهُ فِي التُّرَابِ.

قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ دَارِهِ، جَعَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَنَامُ فِي فِرَاشِهِ، وَيَتَغَطَّى بِبُرْدَتِهِ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَرُدَّ الْوَدَائِعَ وَالْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، ثُمَّ يَلْحَقَ بِهِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَفَتَحَ الْبَابَ وَخَرَجَ يَخْتَرِقُ صَفَّيِ الْحَالِمِينَ بِقَتْلِهِ، وَهُوَ يُرَدِّدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَيَقُولُ:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة يس: 9).

ثُمَّ انْحَنَى وَأَخَذَ حَفْنَةً مِنَ التُّرَابِ وَنَثَرَهَا فَوْقَ رُءُوسِهِمْ، وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ لِيَخْرُجَا مَعًا فِي الطَّرِيقِ إِلَى جَبَلِ ثَوْرٍ فِي الطَّرِيقِ الْجَنُوبِيِّ الْمُتَّجِهِ إِلَى الْيَمَنِ، لِيَصْعَدَا إِلَى قِمَّتِهِ وَيَحْتَمِيَا فِي الْغَارِ.

اسْتَيْقَظَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا عَلَى الْمُفَاجَأَةِ الَّتِي هَزَّتْ جُدْرَانَهَا الْخَرِبَةَ، وَزَعْزَعَتْ قُلُوبَ كُفَّارِهَا الصَّلْدَةَ مِثْلَ الصَّوَّانِ، فَقَدْ فَشِلَتْ مُؤَامَرَتُهُمْ، وَفَرَّ مُحَمَّدٌ ﷺ وَصَاحِبُهُ الصِّدِّيقُ إِلَى حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

رَاقَبَ الْمُشْرِكُونَ كُلَّ الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى مَكَّةَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ رِقَابَةً مُسَلَّحَةً، وَأَعْلَنُوا عَنْ مُكَافَأَةٍ ضَخْمَةٍ قَدْرُهَا مِئَةٌ مِنَ الْإِبِلِ لِمَنْ يُعِيدُ الْفَارَّيْنِ إِلَى مَكَّةَ، سَوَاءٌ كَانَا حَيَّيْنِ أَوْ مَيِّتَيْنِ، فَأَسْرَعَ الْفُرْسَانُ وَرَاءَ قَصَّاصِي الْأَثَرِ، وَانْتَشَرُوا فِي الْجِبَالِ وَالْوُدْيَانِ، حَتَّى وَقَفُوا فَوْقَ الْغَارِ الَّذِي يَخْتَبِئُ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ وَصَاحِبُهُ، وَلَوْ نَظَرَ أَيٌّ مِنْهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآهُمَا، لَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُونَ مَعَ اثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا.

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، كَلَّتْ فِيهَا الْأَقْدَامُ وَالْعُيُونُ مِنَ الْبَحْثِ عَنِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ وَصَاحِبِهِ

الصِّدِّيقِ d حَتَّى يَئِسَ الرِّجَالُ مِنْ مَعْرِفَةِ أَيْنَ يَكْمُنَانِ، وَضَاعَ الْحُلْمُ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِمَا، وَتَبَخَّرَ حُلْمُ امْتِلَاكِ الْمِئَةِ بَعِيرٍ، وَعَادَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى دَارِهِ.

وَجَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ بِنَاقَتَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى بَطْنِ جَبَلِ ثَوْرٍ فِي مَوْعِدِهِ، وَجَاءَ لِنَفْسِهِ بِبَعِيرٍ هُوَ الْآخَرُ، وَسَارَ دَلِيلًا لِلْمُصْطَفَى وَصَاحِبِهِ، فِي طُرُقٍ لَمْ يَعْرِفْهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ حَتَّى وَصَلَ بِهِمَا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَمِنْ هُنَاكَ.. أَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الشَّمَالِ فِي اتِّجَاهِ يَثْرِبَ.

17

سَارَ رَكْبُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الطَّرِيقِ إِلَى يَثْرِبَ، وَهُوَ طَرِيقٌ عَرَفَهُ الرَّسُولُ ﷺ مُنْذُ كَانَ فِي السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِهِ، حِينَ أَخَذَتْهُ أُمُّهُ لِزِيَارَةِ قَبْرِ وَالِدِهِ وَعَادَ بِدُونِهَا. إِنَّهُ طَرِيقٌ يَحْمِلُ لَهُ الْحُزْنَ فِي صِبَاهُ، وَنَسَمَاتِ الْخَيْرِ فِي شَبَابِهِ حِينَ سَافَرَ يُتَاجِرُ بِمَالِ خَدِيجَةَ رَحِمَهَا اللهُ، وَالْآنَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ وَعُمْرُهُ ثَلَاثَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا، لَيْسَ لِزِيَارَةِ قَبْرَيْ وَالِدَيْهِ، وَلَا لِلتِّجَارَةِ بِمَالٍ دُنْيَوِيٍّ، لَكِنَّهُ يَحْمِلُ رِسَالَةً أَرَادَ اللهُ لَهُ أَنْ يَغْرِسَ جُذُورَهَا وَيُرْسِيَ دَعَائِمَهَا فِي أَرْضِ يَثْرِبَ، بَعْدَ أَنْ أَبَتْ أَرْضُ مَكَّةَ قَبُولَهَا وَمَنَعَتْهَا مِنَ الْحَيَاةِ.

وَمَرَّ عَدَدٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالرَّسُولُ ﷺ وَصَاحِبُهُ مَاضِيَانِ فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى يَثْرِبَ، وَوَصَلَتْ أَنْبَاءُ خُرُوجِهِمَا إِلَى أَهْلِهَا، فَصَارُوا يَخْرُجُونَ كُلَّ صَبَاحٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ يَنْتَظِرُونَ، وَأَرْسَلَ الْيَهُودُ مَنْ يَقِفُ فِي حُصُونِهِمُ الْمَنِيعَةِ الَّتِي أَقَامُوهَا لِيَأْوُوا إِلَيْهَا فِي وَقْتِ الْخَطَرِ، يَرْصُدُ لَهُمُ الطَّرِيقَ لِيَرَى الْقَادِمَ مِنْ مَكَّةَ، بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ يَخْرُجُونَ كُلَّ صَبَاحٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ يَنْتَظِرُونَ، حَتَّى يَغْلِبَهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ وَتَخْتَفِيَ الظِّلَالُ الَّتِي يَحْتَمُونَ بِهَا، فَيَعُودُونَ إِلَى دُورِهِمْ، وَيَظَلُّ الْيَهُودِيُّ فِي مَرْصَدِهِ لَا يَتْرُكُهُ.

وَذَاتَ ظَهِيرَةٍ، بَعْدَ عَدَمِ بَقَاءِ ظِلٍّ يَحْتَمِي فِيهِ الْمُسْلِمُونَ، وَبَدَءُوا يَنْسَحِبُونَ لِيَدْخُلُوا إِلَى ظِلَالِ بُيُوتِهِمْ، إِذَا بِصَوْتِ الْيَهُودِيِّ يَنْطَلِقُ مُدَوِّيًا فِي الْفَضَاءِ يَقُولُ:

- يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ.. هَذَا نَبِيُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ.

سَرَتْ بُشْرَى الْيَهُودِيِّ فِي شَوَارِعِ يَثْرِبَ وَحَارَاتِهَا، وَرَاحَ صَدَاهَا يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْجُدْرَانِ وَالْجِبَالِ حَتَّى سَمِعَهَا كُلُّ مَخْلُوقٍ، فَأَسْرَعَ الْمُسْلِمُونَ يَحْمِلُونَ سِلَاحَهُمْ وَيَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَهُمْ يُكَبِّرُونَ، وَتَعَالَتِ التَّكْبِيرَاتُ تَشُقُّ أَجْوَاءَ الْفَضَاءِ، وَتَتَجَمَّعُ خَارِجَةً إِلَى الطَّرِيقِ الْقَادِمِ مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ نَسُوا جَمِيعًا صَهْدَ الصَّحْرَاءِ وَلَهِيبَ الشَّمْسِ، وَأَسْرَعُوا لِلِقَاءِ الْحَبِيبِ الَّذِي آمَنُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَوْهُ.

الْتَقَتْ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَمِينِ وَالصِّدِّيقِ فِي قُبَاءَ، فَالْتَفُّوا حَوْلَهُمَا، وَسَارُوا حَتَّى نَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَمَنْ لَمْ يَرَ الرَّسُولَ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ أَيُّهُمَا يَكُونُ الرَّسُولَ، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ. وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا لَمْ تَشْهَدِ الْمَدِينَةُ مِثْلَهُ فِي تَارِيخِهَا، وَعَادُوا فِي نِهَايَتِهِ إِلَى بُيُوتِهِمْ تَارِكِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي قُبَاءَ.

أَسَّسَ الرَّسُولُ ﷺ فِي قُبَاءَ أَوَّلَ مَسْجِدٍ فِي الْإِسْلَامِ. وَصَلَّى فِيهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمَّا أَمَرَهُ اللهُ بِمُوَاصَلَةِ سَيْرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَرْسَلَ إِلَى أَخْوَالِهِ بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ سُيُوفَهُمْ، وَجَاءَ مَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَرَكِبَ الرَّسُولُ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ وَسَارَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ وَهُمْ حَوْلَهُ يُكَبِّرُونَ وَيُهَلِّلُونَ.

لَبِسَتْ مَدِينَةُ الرَّسُولِ ﷺ ثَوْبَ الْعِيدِ بِوُصُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهَا، صَعِدَتِ النِّسَاءُ فَوْقَ أَسْطُحِ الدُّورِ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَكْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي دَخَلَ إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، الَّتِي لَا مَكَانَ فِيهَا لِقَدَمٍ مِنَ الزِّحَامِ، وَرَاحَتْ نَاقَةُ الرَّسُولِ ﷺ تَشُقُّ أَمْوَاجَ الزِّحَامِ، وَتَمُرُّ عَلَى أَبْوَابِ الدُّورِ الْمَفْتُوحَةِ، فَيُحَاوِلُ أَصْحَابُ الدَّارِ أَنْ يَشُدُّوا قِيَادَهَا لِتَمِيلَ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونَ لَهُمْ شَرَفُ نُزُولِ الرَّسُولِ ﷺ بِدَارِهِمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ:

- هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالسَّلَامِ وَالْمَنَعَةِ.

وَيَرُدُّ الرَّسُولُ ﷺ وَيَقُولُ:

- خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

وَاصَلَتِ النَّاقَةُ سَيْرَهَا فِي شَوَارِعِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى بَرَكَتْ فِي فَضَاءٍ أَمَامَ بَابِ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ، فَنَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ فَوْقِهَا وَهُوَ يَقُولُ:

- هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَنْزِلُ.

وَنَزَلَ فِي دَارِ أَبِي أَيُّوبَ وَكَانَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ. وَكَانَ الْمَكَانُ الَّذِي بَرَكَتْ فِيهِ النَّاقَةُ أَيْضًا مَمْلُوكًا لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ وَكَانَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَصِيًّا عَلَيْهِمَا، وَحِينَ أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ قَالَ:

- يَا بَنِي النَّجَّارِ.. ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا.

قَالُوا:

- لَا وَاللهِ، لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنَ اللهِ.

رَفَضَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِيَ الْمَكَانَ، فَأَرْسَلَ فِي طَلَبِ الْغُلَامَيْنِ وَسَأَلَهُمَا عَنْ ثَمَنِ أَرْضِهِمَا، فَقَالَا:

- لَا نَبِيعُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، لَكِنَّا نَهَبُهُ لَكَ.

وَأَيْضًا أَبَى الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ هِبَةً مِنْ يَتِيمَيْنِ فَقِيرَيْنِ، وَأَصَرَّ عَلَى الشِّرَاءِ، وَدَفَعَ ثَمَنَ الْأَرْضِ، وَأَمَرَ بِالْبَدْءِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ.

كَانَ الْمَكَانُ الَّذِي بَرَكَتْ فِيهِ النَّاقَةُ مَكَانًا خَرِبًا، فِيهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْحُفَرِ وَجُذُوعِ النَّخِيلِ الْجَافَّةِ وَقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ الْمُهْمَلَةِ، فَأَمَرَ بِالْحُفَرِ فَسُوِّيَتْ، وَبِجُذُوعِ النَّخِيلِ فَقُطِّعَتْ، وَبِوَحْيٍ مِنَ اللهِ صَفُّوا جُذُوعَ النَّخِيلِ قِبْلَةً لِلْمَسْجِدِ نَاحِيَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، بَعْدَ ذَلِكَ رَاحُوا يَنْقُلُونَ الْحِجَارَةَ وَالرَّسُولُ ﷺ مَعَهُمْ حَتَّى بَنَوُا الْأَسَاسَ، أَمَّا الْجُدْرَانُ فَبَنَوْهَا مِنَ الْآجُرِّ وَالتُّرَابِ، وَجَعَلُوا لِجُزْءٍ مِنْهُ سَقْفًا مِنَ السَّعَفِ، يَعْتَمِدُ عَلَى أَعْمِدَةٍ مِنْ جُذُوعِ النَّخِيلِ، وَتَرَكُوا الْبَاقِيَ مَكْشُوفًا، وَحِينَ أَتَمُّوا الْبِنَاءَ، أَقَامُوا بِجِوَارِهِ مَسْكَنًا لِلرَّسُولِ ﷺ.

18

اسْتَقَرَّتِ الْحَالُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ فِي مَدِينَتِهِ الَّتِي أَضَاءَهَا بِدَعْوَتِهِ، وَنَظَرَ إِلَى حَالِ الدُّنْيَا مِنْ حَوْلِهِ، فَوَجَدَ حَوْلَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَعَاهَدُوهُ عَلَى نُصْرَتِهِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَالِ وَالدَّارِ وَالْأَرْضِ، وَوَجَدَ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ هَرَبًا بِدِينِهِمْ، وَقَدْ تَرَكُوا خَلْفَهُمْ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ.. وَصَارُوا فُقَرَاءَ لَا يَمْلِكُونَ قُوتَ يَوْمِهِمْ، وَكَانَ هُنَاكَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا الْإِسْلَامَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَذَا قَبَائِلُ الْيَهُودِ الثَّلَاثُ ـ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ ـ الَّذِينَ كَانُوا يُوقِدُونَ نَارَ الْخِلَافِ وَالشِّقَاقِ بَيْنَ أَوْلَادِ الْعَمِّ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَيَبِيعُونَ السِّلَاحَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا، وَيَشْعُرُونَ بِالسَّعَادَةِ حِينَ يَرَوْنَ الْهَلَاكَ يُحِيطُ بِمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمْ.

كَانَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ لِكَيْ يَبْدَأَ بِبِنَاءِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْقَوِيَّةِ، الَّتِي سَتَقُومُ بِنَشْرِ دِينِ اللهِ الْحَنِيفِ إِلَى كُلِّ بِقَاعِ الْأَرْضِ، كَانَ عَلَيْهِ فِي الْبِدَايَةِ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُتْلَةً وَاحِدَةً قَادِرَةً عَلَى مُوَاجَهَةِ أَعْدَائِهَا.

جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْمَسْجِدِ نَادِيًا يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِمْ. عَلَّمَهُمْ تَقْوَى اللهِ، فَصَارُوا مُتَحَابِّينَ فِي اللهِ مُتَوَاصِلِينَ مُتَرَاحِمِينَ، وَآخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أُخُوَّةً فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى عَقْدٍ أَوْ إِلْزَامٍ، أُخُوَّةً فِي الدِّينِ وَالدَّمِ، أُخُوَّةً فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْمَتَاعِ وَالْأَمْلَاكِ، أُخُوَّةً فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ.

وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَلِيفٌ وَمَأْلُوفٌ، فَقَدِ امْتَزَجَتِ النُّفُوسُ وَالْعَقْلِيَّاتُ، وَتَآلَفَتِ الْأَرْوَاحُ،

وَاسْتَطَاعَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُذِيبَ عَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنْ يُسْقِطَ الْفَوَارِقَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالشَّرِيفِ، وَالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةً.

وَصَارَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِرُوحِ الْجَمَاعَةِ وَمَصْلَحَتِهَا وَآمَالِهَا، وَالْجَمِيعُ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ.

وَجَعَلَ طَاعَتَهُمْ لِأَوَامِرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طَاعَةَ حُبٍّ وَرِضًا، جَعَلَتِ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يَفْدِيَ دِينَهُ بِرُوحِهِ، وَاثِقًا بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَنْقُلُهُ حَيًّا إِلَى الْجَنَّةِ وَيَرْزُقُهُ هُنَاكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي وَلَا يَعْلَمُ.

وَتَكَوَّنَتْ نَوَاةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْحُبِّ وَالْإِخَاءِ وَطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. نَادِيهِمُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَيُنَاقِشُونَ أُمُورَ حَيَاتِهِمْ، وَيُقِيمُونَ فِيهِ صَلَوَاتِهِمْ، هُوَ الْمَسْجِدُ، يَأْتُونَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي مَوَاقِيتِهَا دُونَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ فَكَّرُوا فِي أَنْ يَجْعَلُوا بُوقًا يَأْتُونَ إِلَى الْمَسْجِدِ حِينَ يَسْمَعُونَهُ، فَكَرِهَ الرَّسُولُ ﷺ

ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَقْلِيدٌ لِلْيَهُودِ، ثُمَّ فَكَّرُوا فِي النَّاقُوسِ يَقْرَعُونَهُ، وَكَرِهَ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ أَيْضًا لِأَنَّهُ تَقْلِيدٌ لِلنَّصَارَى. وَذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا هُمْ جَالِسُونَ يُفَكِّرُونَ فِي حَلٍّ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ فِي مَوَاقِيتِهَا؛ حَتَّى لَا يَتَأَخَّرَ أَحَدٌ، جَاءَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ وَهُوَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَيَّ رَجُلٌ يَلْبَسُ ثَوْبَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، وَيَحْمِلُ فِي يَدِهِ نَاقُوسًا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَتَبِيعُ هَذَا النَّاقُوسَ؟ فَسَأَلَنِي وَقَالَ: وَمَاذَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ لَهُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ لِي: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَقُولُ:

«اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.. أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ.. حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.. حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

عَلَّقَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللهُ. قُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِهَا عَلَيْهِ لِيُؤَذِّنَ بِهَا؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ.

صَحِبَ الرَّجُلُ بِلَالًا، وَرَاحَ يُمْلِي عَلَيْهِ كَلِمَاتِ حُلْمِهِ، جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ كَمَا سَمِعَهَا مِنَ الرَّجُلِ صَاحِبِ الثَّوْبَيْنِ الْأَخْضَرَيْنِ فِي حُلْمِهِ، وَبِلَالٌ يُرَدِّدُهَا بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ الرَّخِيمِ، تَنْطَلِقُ فِي الْفَضَاءِ، تَخْتَرِقُ الْأَبْوَابَ وَالْجُدْرَانَ وَتَصِلُ إِلَى آذَانِ الْمُسْلِمِينَ تَدْعُوهُمْ لِلصَّلَاةِ.

سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْأَذَانَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَتَعَجَّبَ وَأَسْرَعَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ:

- يَا نَبِيَّ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا.

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى ذَلِكَ.

وَصَارَتْ رُؤْيَا عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ f نَصًّا مُلْهَمًا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِدَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ.

عَاشَتْ مَدِينَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْحَيَاةَ الْفَاضِلَةَ الَّتِي يَحْلُمُ بِهَا كُلُّ الْبَشَرِ فِي أَيِّ مَكَانٍ: أُخُوَّةً صَادِقَةً، صِدْقًا فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالْحَيَاةِ، وَتَكَافُلًا تَامًّا بَيْنَ النَّاسِ وَبَعْضِهِمْ، يَأْتِيهِمُ التَّشْرِيعُ لِتَنْظِيمِ حَيَاتِهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَاشَرَةً، فَصَارَتْ حَيَاةُ الْمُسْلِمِينَ نَمُوذَجًا لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا، وَوَضَعَ الرَّسُولُ ﷺ بِتَوْجِيهَاتٍ مِنَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أُسُسَ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ، وَأَصْبَحَتِ الْمَدِينَةُ تَعِيشُ فِي إِطَارٍ وَاحِدٍ فِي ظِلِّ نِظَامٍ وَاحِدٍ يَقُودُهُمْ قَائِدٌ وَاحِدٌ هُوَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ الَّذِي بَدَأَ يُفَكِّرُ فِي الْإِعْلَانِ عَنْ هَذَا الْكِيَانِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَدِيدِ، كِيَانًا قَوِيًّا لَا خُذْلَانَ فِيهِ. وَصَارَ يَخْرُجُ فِي سَرَايَا إِلَى الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، يَعْقِدُ مَعَهَا تَحَالُفَاتٍ بِعَدَمِ اعْتِدَاءِ أَيٍّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ.

كَانَ الْيَهُودُ مُنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لِوُصُولِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَدِ اسْتَشْعَرُوا خَطَرَهُ عَلَيْهِمْ، وَهَا هُوَ سَيِّدُهُمْ حُيَيٌّ يَأْخُذُ ابْنَ عَمِّهِ أَبَا يَاسِرٍ وَيَخْرُجَانِ بَعْدَ الْفَجْرِ وَيَظَلَّانِ طَوَالَ نَهَارِهِمَا يُرَاقِبَانِ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ الْمُهَاجِرَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ، وَيَسْمَعَانِ قُرْآنَهُ، وَمَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَعُودَانِ إِلَى بَيْتِهِمَا وَقَدْ رَكِبَهُمَا الْهَمُّ وَالْغَمُّ، فَقَدْ تَأَكَّدَا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ تَوْرَاتُهُمْ، وَسَأَلَ أَبُو يَاسِرٍ ابْنَ عَمِّهِ لِيَتَأَكَّدَ مِمَّا رَأَى وَقَالَ لَهُ:

- أَهُوَ.. هُوَ؟

أَجَابَ حُيَيٌّ وَقَالَ:

- نَعَمْ، إِنَّهُ هُوَ.

عَادَ أَبُو يَاسِرٍ لِلسُّؤَالِ ثَانِيَةً، وَقَالَ مُشَكِّكًا:

- أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟

رَدَّ حُيَيٌّ آسِفًا وَقَالَ:

- نَعَمْ أَعْرِفُهُ.

مَلَأَتِ الْحَسْرَةُ قَلْبَ أَبِي يَاسِرٍ وَقَالَ:

- وَمَاذَا قَرَّرْتَ فِي نَفْسِكَ حِيَالَهُ؟

أَجَابَ حُيَيٌّ مُؤَكِّدًا:

- عَدَاوَتَهُ مَا بَقِيتُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ.

اتَّفَقَ الْيَهُودُ عَلَى أَنَّهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْوَقْتِ؛ حَتَّى يُفَكِّرُوا وَيَتَدَبَّرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ، وَقَرَّرُوا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَرْتَدُونَ ثَوْبَ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَأَتْبَاعُ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَقَدْ سَمِعُوا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، مُقِرٌّ بِنُبُوَّةِ عِيسَى وَمُوسَى وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

وَفِي خُبْثٍ وَمَسْكَنَةٍ رَاحُوا يُرَحِّبُونَ بِهِ وَيَسْأَلُونَهُ الْمُوَادَعَةَ وَالْأَمَانَ، وَلَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ضِدَّ أَيِّ عُدْوَانٍ، فَأَعْطَاهُمُ الرَّسُولَ الْكَرِيمُ ﷺ مَا طَلَبُوا، فَعَادُوا إِلَى أَوْكَارِهِمْ يُدَبِّرُونَ لِحَرْبِ الْإِسْلَامِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُعْلَنَةٍ، تَبْدُو عَلَى أَنَّهَا حَوَادِثُ فَرْدِيَّةٌ حَتَّى لَا يَحْمِلُوا إِثْمَهَا، وَيُضْطَرُّوا إِلَى مُوَاجَهَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي أَطْفَأَ نَارَ

الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، بَعْدَ أَنْ ظَلُّوا أَجْيَالًا يُشْعِلُونَ نَارَهَا. وَلِسُوءِ حَظِّهِمْ.. كَانَتْ سِهَامُهُمْ تَرْتَدُّ إِلَى صُدُورِهِمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. حَتَّى حِينَ تَظَاهَرَ عَدَدٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَرَاحُوا يَبْذُرُونَ بُذُورَ الشَّرِّ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْمَدِينَةِ، وَيَتَصَدَّوْنَ لِمُجَادَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْأُمُورِ الَّتِي جَاءَتْ فِي تَوْرَاتِهِمْ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا، فَيَجِدُونَ آيَاتِ اللهِ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ وَتَرْدَعُهُمْ، وَوَجَدُوا الصَّحَابَةَ حَائِطًا مَنِيعًا يَزْجُرُونَهُمْ، فَعَادُوا لِلْمُهَادَنَةِ انْتِظَارًا لِمَعْرَكَتِهِمُ الْعَلَنِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَحِنْ أَوَانُهَا بَعْدُ.

19

وَمَـرَّتْ عِـدَّةُ شُـهُورٍ، وَبَـدَأَ الرَّسُـولُ ﷺ وَالْمُهَاجِرُونَ يُفَكِّـرُونَ فِيمَا أَلْحَـقَ بِهِمُ الْمُشْـرِكُونَ مِنْ أَذًى، وَفِي مَالِهِمُ الَّذِي تَرَكُوهُ فِي مَكَّةَ وَاسْـتَوْلَى عَلَيْـهِ الْكُفَّارُ وَاعْتَبَرُوهُ مَالَهُمْ وَرَاحُوا يَتَّجِرُونَ بِهِ وَيَرْبَحُونَ، وَحِينَ أَذِنَ اللهُ لَهُمْ بِالْقِتَالِ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، قَرَّرُوا الْبَدْءَ فِي اسْتِرْدَادِ مَالِهِمُ الْمَنْهُوبِ.

كَانَتْ قَوَافِلُ التِّجَارَةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْبِضَاعَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّـامِ، وَالْعَائِدَةُ مِنَ الشَّـامِ إِلَى مَكَّةَ، تَسِـيرُ فِي طُرُقٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُـولِ ﷺ، وَهَذَا مَالُهُمُ الْمَنْهُوبُ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَرِدُّوهُ، فَبَدَأَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُكَوِّنُ سَرَايَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَأْمُرُهُمْ بِقِتَالِ حُـرَّاسِ الْقَوَافِلِ وَإِعَادَةِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِمُ الَّذِي اسْـتَوْلَى عَلَيْهِ الْمُشْـرِكُونَ فِي مَكَّةَ.

وَتَعَدَّدَتْ سَـرَايَا الْمُسْـلِمِينَ وَغَزَوَاتُهُمْ(*)، وَكَثُـرَتِ الْعِيرُ الَّتِي يَسُـوقُونَهَا مُحَمَّلَةً بِالْبَضَائِعِ بِآلَافِ الدَّرَاهِمِ عِوَضًا عَنْ مَالِهِـمْ وَأَرْضِهِمْ وَبُيُوتِهِمُ الَّتِي تَرَكُوهَا فِي مَكَّةَ.

وَبَعْدَ سَـنَةٍ وَنِصْفِ السَّنَةِ عَلَى وُصُولِ الرَّسُـولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبِنَاءِ مَسْجِدِهِ فِيهَا، وَقِبْلَتُـهُ إِلَى بَيْـتِ الْمَقْدِسِ، بَـدَأَ الْيَهُودُ يُحَاوِلُـونَ إِيقَاعَ الْفِتْنَـةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْـلِمِينَ، وَيَقُولُونَ:

- إِنَّ مُحَمَّدًا يُخَالِفُنَا وَيَتَّبِـعُ قِبْلَتَنَا.

(*) تَسْتَطِيعُ الْحُصُولَ عَلَى تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ مِنْ كِتَابِي (مَعَارِكُ إِسْلَامِيَّةٌ) لِنَاشِرِ هَذَا الْكِتَابِ نَفْسِهِ.

وَيَقُولُونَ لِلْمُسْلِمِينَ:

- لَوْ لَمْ نَكُنْ عَلَى هُدًى مَا صَلَّيْتُمْ إِلَى قِبْلَتِنَا.

حَتَّى الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ بَدَءُوا يَتَنَدَّرُونَ هُمْ أَيْضًا عَلَى اتِّخَاذِ الرَّسُولِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى قِبْلَتَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُونَ لِلْمُسْلِمِينَ:

- لِمَ تَقُولُونَ إِنَّكُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَنْتُمْ تَتْرُكُونَ قِبْلَتَهُ وَتُصَلُّونَ إِلَى قِبْلَةِ الْيَهُودِ؟

تَمَنَّى الرَّسُولُ ﷺ أَنْ تَكُونَ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ؛ حَتَّى يَكُفَّ الْيَهُودُ عَنْ دَسِّ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمْ، وَصَارَ حِينَ يُصَلِّي إِلَى قِبْلَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، يَهْفُو قَلْبُهُ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ يُكْثِرُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُصَلِّي بِالْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الظُّهْرِ، مُتَّخِذًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى قِبْلَةً لَهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْهَى رَكْعَتَيْنِ، وَبَيْنَمَا هُوَ رَاكِعٌ لِلرَّكْعَةِ الثَّالِثَةِ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ a وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَ بِأَنْ يَتَحَوَّلَ بِقِبْلَتِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَتَحَوَّلَ إِلَيْهَا رَاكِعًا وَتَحَوَّلَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ، وَأَتَمَّ نِصْفَ الصَّلَاةِ الْبَاقِيَ وَقِبْلَتُهُ مَكَّةُ، فَصَارَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ هَذِهِ هِيَ الصَّلَاةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي صُلِّيَتْ إِلَى قِبْلَتَيْنِ، وَسُمِّيَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُقِيمَتْ فِيهِ هَذِهِ الصَّلَاةُ بِمَسْجِدِ الْقِبْلَتَيْنِ.

وَانْتَشَرَ خَبَرُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى مَكَّةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ فِي كُلِّ الْمَسَاجِدِ، وَوَجَدَ الْيَهُودُ فِي هَذَا التَّحَوُّلِ وَسِيلَةً لِيُضَلِّلُوا بِهَا الرَّسُولَ ﷺ لِيَبْدُوَ أَمَامَ أَتْبَاعِهِ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، مَرَّةً هُنَا وَمَرَّةً هُنَاكَ، فَيَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَذَهَبَ كِبَارُهُمْ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالُوا لَهُ:

- يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَّاكَ عَنْ قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا؟

ثُمَّ قَالُوا:

- ارْجِعْ إِلَى قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَنَحْنُ نُصَدِّقُكَ وَنَتَّبِعُكَ.

رَفَضَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَرْضَ الْيَهُودِ، وَظَلَّ الْمُسْلِمُونَ وَحْدَةً وَاحِدَةً، وَتَأَكَّدَ الْيَهُودُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْقِبْلَةِ الَّتِي يَرْضَاهَا أَبَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ.. ظَلُّوا عَلَى كَرَاهِيَتِهِمْ لَهُ وَعَدَائِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ الرَّسُولُ الْمُنْتَظَرُ.

مَرَّتْ أَيَّامُ الرَّسُولِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ فِي مَدِينَتِهِ بِالْبِشْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَمَعَ كُلِّ طَلْعَةِ شَمْسٍ يَزْدَادُ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَنْتَقِلُونَ مِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرٍ، وَكَانَ نَصْرُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ عَظِيمًا.

لَمْ يُفِقِ الْيَهُودُ مِنْ هَوْلِ صَدْمَتِهِمْ بِالنَّصْرِ السَّاحِقِ لِلْإِسْلَامِ عَلَى قُوَى الشِّرْكِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَفَشِلَتْ مُؤَامَرَتُهُمْ مَعَ الْقُرَشِيِّينَ، الَّتِي غَدَرُوا فِيهَا بِعَهْدِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، عَلَى أَمَلِ أَنْ تَنْتَصِرَ شُرُورُهُمْ وَشُرُورُ الْقُرَشِيِّينَ، وَنَسُوا أَنَّ اللهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَنَاصِرٌ عَبْدَهُ. لَقَدْ آلَمَتْهُمُ الْهَزِيمَةُ الَّتِي مُنِيَتْ بِهَا قُرَيْشٌ فِي بَدْرٍ، وَحَاوَلُوا أَنْ يُحَقِّرُوا مِنَ النَّصْرِ الَّذِي حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ.

كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْلَنَ عَمَّا فِي قَلْبِهِ مِنْ غِلٍّ وَحِقْدٍ عَلَى الْإِسْلَامِ هُمْ يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاعَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ دَاخِلَ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَ الرَّسُولُ كَرِيمًا مَعَهُمْ، وَاكْتَفَى بِأَنْ حَدَّدَ لَهُمْ إِقَامَتَهُمْ فِي سُوقِهِمْ، سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ نِقْمَتَهُ كَمَا أَنْزَلَهَا عَلَى قُرَيْشٍ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدِعُوا، وَعَادُوا ثَانِيَةً إِلَى جُحُورِهِمْ يَتَآمَرُونَ، وَيَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ غَيْرَ مُبَالِينَ بِتَحْذِيرِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ لَهُمْ.

وَذَاتَ يَـوْمٍ كَانَتْ إِحْدَى الْمُسْـلِمَاتِ قَدْ جَلَسَـتْ إِلَى صَائِغٍ فِي سُـوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَتَحَـرَّشَ بِهَا عَدَدٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَسَـاعَدَهُمُ الصَّائِغُ، فَصَرَخَتْ تَسْـتَنْجِدُ بِالْمُسْـلِمِينَ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ فَقَتَلَهُ، وَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ الْيَهُودُ فَقَتَلُوهُ، وَأَسْـرَعُوا جَمِيعًا إِلَى حِصْنِهِمْ وَاحْتَمَوْا فِيهِ، وَجَاءَ الرَّسُـولُ ﷺ فِي جَمْعٍ ثَائِرٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ فَحَاصَرُوا الْحِصْنَ.

اسْـتَمَرَّ حِصَارُ الْمُسْـلِمِينَ لِلْيَهُودِ فِي حِصْنِهِمْ خَمْسَـةَ عَشَـرَ يَوْمًا، حَتَّى اسْتَسْلَمُوا وَرَضُوا بِحُكْمِ رَسُولِ اللهِ فِيهِمْ، فَأَمَرَ بِأَنْ يَتْرُكُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَأَنْ يُغَادِرُوا الْمَدِينَةَ خِلَالَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَتَطَهَّرَتْ مَدِينَةُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ.

وَجَاءَتْ مَوْقِعَةُ أُحُدٍ، الَّتِي انْهَزَمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ أَنْ كَانَ النَّصْرُ حَلِيفَهُمْ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ خَالَفَ أَوَامِرَ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْمَعْرَكَةِ وَتَرَكُوا مَوَاقِعَهُمْ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا حُسِمَتْ لِصَالِحِهِمْ، وَأَسْرَعُوا يَجْمَعُونَ غَنَائِمَ الْحَرْبِ مِمَّا تَرَكَهُ الْمُشْرِكُونَ وَفَرُّوا مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا أَنْ وَجَدَ الْمُشْرِكُونَ ثُغْرَةً بِلَا حِمَايَةٍ وَنَفِذُوا مِنْهَا وَعَادُوا لِلْقِتَالِ وَكَانَ لَهُمُ النَّصْرُ.

وَظَنَّ الْيَهُودُ أَنَّ جَيْشَ الرَّسُولِ ﷺ قَدْ أَصَابَهُ الضَّعْفُ وَالْوَهَنُ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ وَانْكَسَرَ، فَقَرَّرَ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ الْخَلَاصَ مِنْهُ وَقَتْلَهُ!

وَذَاتَ يَوْمٍ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَفِي صُحْبَتِهِ عَدَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عَنْ طَرِيقِ قُبَاءَ إِلَى دِيَارِ بَنِي النَّضِيرِ لِحَاجَةٍ يَقْضِيهَا، فَاسْتَقْبَلَهُ بَنُو النَّضِيرِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْبَشَاشَةِ وَالتَّرْحِيبِ، وَبَيْنَمَا هُمْ جَالِسُونَ بِجِوَارِ حَائِطٍ يَتَحَدَّثُونَ، صَعِدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَى سَطْحِ الدَّارِ لِيُلْقِيَ صَخْرَةً فَوْقَ رَأْسِ الرَّسُولِ ﷺ، إِلَّا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَهُ بِمَا يَنْوُونَ، فَنَهَضَ فِي صَمْتٍ وَانْطَلَقَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَانْطَلَقَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ خَلْفَهُ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَا الَّذِي حَدَثَ.

وَفِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِغَدْرِ بَنِي النَّضِيرِ وَمُحَاوَلَةِ قَتْلِهِ، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ إِلَيْهِمْ لِيَقُولَ لَهُمْ:

- إِنَّ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ لَكُمُ اخْرُجُوا مِنْ بِلَادِي؛ فَقَدْ نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتُ لَكُمْ مِمَّا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنَ الْغَدْرِ، وَقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْرًا، فَمَنْ رُئِيَ بَعْدُ مِنْكُمْ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ.

بَدَأَ بَنُو النَّضِيرِ يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِلرَّحِيلِ، لَكِنَّ زَعِيمَ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ أَرْسَلَ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ:

- اثْبُتُوا وَتَمَنَّعُوا فَإِنَّا لَنْ نُسْلِمَكُمْ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ، وَلَا تَخْرُجُوا فَإِنَّ مَعِيَ مِنَ الْعَرَبِ وَمِمَّنِ انْضَمَّ إِلَى قَوْمِي أَلْفَيْنِ، يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حُصُونَكُمْ، وَيَمُوتُونَ عَنْ آخِرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمُ الْمُسْلِمُونَ.

عَادَتْ لِلْيَهُودِ ثِقَتُهُمْ فِي الْبَقَاءِ، وَتَشَجَّعَ كَبِيرُهُمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَأَرْسَلَ إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ يَقُولُ لَهُ:

- إِنَّا لَنْ نَبْرَحَ دَارَنَا، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ.

انْتَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ حَتَّى انْقَضَتْ مُهْلَةُ الْأَيَّامِ الْعَشَرَةِ الَّتِي أَعْطَاهَا لَهُمْ، ثُمَّ تَحَرَّكَ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ لِحِصَارِ حِصْنِهِمْ، وَلَمَّا مَضَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَلَمْ يَفِ بَنُو قُرَيْظَةَ بِوَعْدِهِمْ لَهُمْ، دَبَّ الْيَأْسُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَبَثَّ اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَدْرَكُوا أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ جَلَائِهِمْ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَلْتَمِسُونَ مِنْهُ أَنْ يُؤَمِّنَهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ. فَقَالَ لَهُمْ:

- اخْرُجُوا مِنْهَا، وَلَكُمْ دِمَاؤُكُمْ وَمَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ إِلَّا الدُّرُوعَ وَالسِّلَاحَ.

وَحَمَلُوا أَمْتِعَتَهُمْ عَلَى سِتِّمِئَةِ بَعِيرٍ، وَخَرَجُوا وَمَعَهُمُ الدُّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ مِنْ خَلْفِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَشْمَتَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَصَدَ بَعْضُهُمْ خَيْبَرَ، وَسَارَ آخَرُونَ إِلَى أَذْرُعَاتِ الشَّامِ.

20

لَـمْ يَتَّعِـظْ بَنُو قُرَيْظَةَ بِمَا حَـدَثَ لِيَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيـرِ، وَلَمْ يُحَافِظُوا عَلَى الْعُهُودِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّسُـولِ ﷺ، وَرَكِبَهُمْ شَيْطَانُهُمْ وَأَرْسَلُوا وَفْدًا إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وَانْتِهَازِ فُرْصَةِ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ ﷺ وَيَعِدُونَهُمْ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ.

عَـرَفَ الرَّسُـولُ ﷺ بِتَآمُرِ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ مَعَ كُفَّـارِ قُرَيْشٍ، لَكِنَّهُ ﷺ أَجَّلَ عِقَابَهُمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ أَوَّلًا مِنْ لِقَاءِ جَيْشِ الشِّرْكِ الْقَادِمِ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ وَغَطَفَانَ.

وَقَبْـلَ أَنْ يَصِـلَ جَيْـشُ الْكُفْـرِ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ الرَّسُـولُ ﷺ قَدْ حَفَـرَ خَنْدَقًا مَانِعًا لِدُخُولِهِمُ الْمَدِينَةَ، وَعَسْكَرَ كُلُّ جَيْشٍ عَلَى جَانِبٍ مِنْهُ، وَعَبْرَ الْخَنْدَقِ تَنَاوَشَ الْجَيْشَانِ بِالسِّـهَامِ وَالرِّمَاحِ إِلَى أَنْ أَرَادَ اللهُ هَزِيمَةَ الْمُشْـرِكِينَ شَـرَّ هَزِيمَةٍ، فَأَرْسَـلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا أَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ، وَقَلَبَتْ قُدُورَهُمْ، وَقَلَعَتْ أَوْتَادَهُمْ وَطَيَّرَتْ خِيَامَهُمْ وَهَيَّجَتْ خَيْلَهُمْ وَإِبِلَهُمْ، وَانْتَزَعَتْ حَبَّاتِ الرِّمَالِ مِنَ الْأَرْضِ وَلَطَمَتْ بِهَا وُجُوهَهُمْ، وَلَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِمْ شَـمْسُ النَّهَارِ إِلَّا وَهُمْ مُبَعْثَرُونَ فِي الصَّحْرَاءِ كَكَوْمَاتِ الْقَشِّ الذَّابِلَةِ، وَأَرْسَـلَ عَلَيْهِمْ جُنُودًا لَمْ يَرَوْهَا، أَذَاقَتْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

ظَلَّ الرَّسُـولُ ﷺ وَالْمُسْـلِمُونَ حَـوْلَ الْخَنْدَقِ حَتَّى سَـاعَةِ الظَّهِيرَةِ، ثُـمَّ عَادُوا إِلَى الْمَدِينَـةِ وَذَهَـبَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى دَارِهِ يَنْفُضُ عَنْ نَفْسِـهِ غُبَارَ الْمَعْرَكَـةِ، وَلَمْ يَكَدِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَدْخُلُ دَارَهُ، حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ مُؤَذِّنِ الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ:

ـ أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.

كَانَ ذَلِكَ نِدَاءَ حَرْبٍ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَتَذَكَّرَ الْمُجَاهِدُونَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ غَدْرٍ وَخِيَانَةٍ لِلْعُهُودِ وَتَكْذِيبٍ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْقِتَالُ ثَانِيَةً، فَتَقَلَّدَ كُلٌّ مِنْهُمْ عُدَّةَ حَرْبِهِ، وَأَسْرَعُوا جَمِيعًا يُلَبُّونَ النِّدَاءَ.

تَدَفَّقَتْ جُمُوعُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَوْعِدِ الرَّسُولِ ﷺ لِصَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَحِينَ وَصَلُوا كَانَ الْيَهُودُ قَدْ هَرَبُوا مِنْهُمْ إِلَى حِصْنِهِمْ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ صَارُوا فِي أَمَانٍ مِنْ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَّى الْمُسْلِمُونَ الْعَصْرَ، وَحَاصَرُوا الْحِصْنَ فِي انْتِظَارِ أَنْ يَجِدُوا حِيلَةً يَفْتَحُونَهُ بِهَا، أَوْ أَنْ يَخْرُجَ الْيَهُودُ لِقِتَالِهِمْ.

حَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ حِصْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، عَاشُوهَا فِي رُعْبٍ قَاتِلٍ، حَتَّى دَفَعَهُمُ الرُّعْبُ إِلَى الِاسْتِسْلَامِ رَاضِينَ بِحُكْمِ مُحَمَّدٍ فِيهِمْ. فَتَرَكَ الرَّسُولُ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ لِنَقِيبِ الْأَوْسِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، الَّذِي لَمْ يَسْتَمِعْ لِكُلِّ الْأَصْوَاتِ الَّتِي تُطَالِبُهُ بِالرِّفْقِ بِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةَ:

- آنَ لِسَعْدٍ أَلَّا تَأْخُذَهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةُ لَائِمٍ.

وَأَصْدَرَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ، ذَلِكَ الْحُكْمُ الَّذِي عَلَّقَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- قَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ.

كَانَ حُكْمُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ أَنْ يُقْتَلَ رِجَالُهُمْ، وَتُقَسَّمَ أَمْوَالُهُمْ، وَكَانَ حُكْمًا غَايَةً فِي الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، فَإِنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا ارْتَكَبُوا مِنْ غَدْرٍ وَعَدَمِ احْتِرَامٍ لِلْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ، فَقَدْ وَجَدَ الْمُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي حُصُونِهِمْ أَلْفًا وَخَمْسَمِئَةِ سَيْفٍ، وَأَلْفَيْ رُمْحٍ، وَثَلَاثَمِئَةِ دِرْعٍ، وَخَمْسَمِئَةِ تُرْسٍ وَحَجَفَةٍ، كَانَ الْيَهُودُ قَدْ جَمَعُوهَا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ يُقَاتِلُونَ بِهَا أَعْدَاءَهُ، وَيَعُودُونَ هُمْ

إِلَى ضَلَالِهِمُ الْقَدِيمِ، يَتِيهُونَ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ تَلْفِظُهُمُ الْأَرْضُ أَيْنَمَا أَقَامُوا، وَتُطَارِدُهُمُ اللَّعْنَةُ أَيْنَمَا حَطُّوا أَوْ سَارُوا.

لَمْ يَبْقَ مِنَ الْيَهُودِ فِي الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ إِلَّا يَهُودَ خَيْبَرَ، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَرْجَأَ السَّيْرَ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا بَعْدَ الْعَوْدَةِ مِنْ مَكَّةَ، فَقَدْ قَرَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهَا مُعْتَمِرًا.

رَكِبَ الرَّسُولُ ﷺ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ مُسْلِمٍ غَيْرِ مُسَلَّحِينَ لِلْقِتَالِ، لَيْسَ مَعَ أَيٍّ مِنْهُمْ إِلَّا سِلَاحُ الْمُسَافِرِ فَقَطْ، وَسَاقُوا مَعَهُمْ هَدْيَهُمْ وَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى مَكَّةَ، وَلَمَّا عَرَفَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بِقُدُومِهِمْ قَرَّرُوا قِتَالَهُمْ وَمَنْعَهُمْ مِنْ دُخُولِهَا، وَبَلَغَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ الْخَبَرُ بِمَوْقِفِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَتَوَقَّفَ بِمَنْ مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ.

سَارَتِ الرُّسُلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ يَتَفَاوَضُونَ عَلَى حَقْنِ الدِّمَاءِ، وَأَخِيرًا جَاءَ سُهَيْلُ ابْنُ عَمْرٍو يَعْرِضُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنْ تَلْتَزِمَ قُرَيْشٌ بِالسَّمَاحِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالطَّوَافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَلَكِنْ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ؛ حَتَّى لَا تُعَيِّرَهُمُ الْعَرَبُ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ طَافُوا رَغْمًا عَنْهُمْ، وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بُنُودَ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَكَتَبَ يَقُولُ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ سُهَيْلَ ابْنَ عَمْرٍو، حَيْثُ اصْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ، وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ، وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ.

أَعْلَنَتْ قَبِيلَةُ خُزَاعَةَ مَوْقِفَهَا وَقَالُوا:

- نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ.

وَخَالَفَهُمْ بَنُو بَكْرٍ وَقَالُوا:

- نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ.

وَوَاصَلَ عَلِيٌّ كِتَابَةَ بُنُودِ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي تَنُصُّ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ وَلَا يَدْخُلُوا مَكَّةَ هَذَا الْعَامَ، وَأَنَّهُ إِذَا جَاءَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ لِيَدْخُلَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، يُقِيمُونَ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَيْسَ مَعَهُمْ سِوَى سِلَاحِ الْمُسَافِرِ فَقَطْ.

وَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ تَوْقِيعُ الْمُعَاهَدَةِ، فُوجِئَ الْجَمِيعُ بِأَبِي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ وَكَانَ قُرَشِيًّا قَدْ أَسْلَمَ وَقَيَّدُوهُ وَعَذَّبُوهُ عَذَابًا شَدِيدًا حَتَّى يَرْتَدَّ عَنْ إِسْلَامِهِ، فُوجِئُوا بِهِ يَرْمِي بِنَفْسِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَأَصَرَّ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى أَنْ يَرُدُّوهُ.

أَخَذَ أَبُو جَنْدَلٍ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَيَقُولُ:

- يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَأُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ.

وَوَقَّعَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مَعَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى الْمُعَاهَدَةِ. وَبَعْدَ أَنْ غَادَرَ، أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَذْبَحُوا هَدْيَهُمْ.. وَأَنْ يَحْلِقُوا رُءُوسَهُمْ، لَكِنَّ الْحُزْنَ قَدْ غَلَّفَ قُلُوبَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ لَا يَرَوْنَ حِكْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَوْقِيعِ مُعَاهَدَةٍ مِثْلِ هَذِهِ، وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ سَيَجْعَلُ الْقُرَشِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَقْضَ هَذَا الشَّرْطِ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّ مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ مُسْلِمًا إِلَى مُحَمَّدٍ فَهُوَ آمِنٌ.

وَحِينَ قَامَ الرَّسُولُ ﷺ وَنَحَرَ هَدْيَهُ وَحَلَقَ شَعْرَهُ، قَامَ الْمُسْلِمُونَ وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ وَحَلَقُوا رُءُوسَهُمْ وَالْحُزْنُ يُغَلِّفُهُمْ، لِدَرَجَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَادَ يَقْتُلُ بَعْضًا وَهُوَ يَحْلِقُ لَهُ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى أَمَلِ الْعَوْدَةِ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ اسْمُهُ أَبُو بَصِيرٍ، فَأَرْسَلَ الْمُشْرِكُونَ خَلْفَهُ رَجُلَيْنِ يَرُدَّانِهِ، وَحِينَ وَصَلُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ ذَكَّرَاهُ بِالْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُمْ، فَسَلَّمَهُمُ الرَّجُلَ، وَأَخَذَا طَرِيقَ الْعَوْدَةِ بِهِ إِلَى قُرَيْشٍ.

وَفِي الطَّرِيقِ، جَلَسَ الرِّجَالُ يَأْكُلُونَ، فَاحْتَالَ أَبُوبَصِيرٍ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَضَرَبَهُ بِهِ فَقَتَلَهُ وَهَرَبَ الثَّانِي خَوْفًا، وَعَادَ أَبُوبَصِيرٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ فَأَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ.

لَمْ يُرَحِّبِ الرَّسُولُ ﷺ بِالرَّجُلِ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجَ حَتَّى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَسَمِعَ بِهِ أَبُو جَنْدَلٍ فِي قُرَيْشٍ، فَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَهْرُبَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَذْهَبَ إِلَيْهِ، وَصَارَ كُلُّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ لَا يَذْهَبُ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَلْ يَذْهَبُ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ حَيْثُ يُقِيمُ أَبُو بَصِيرٍ وَأَبُو جَنْدَلٍ، وَلَمَّا كَثُرَ عَدَدُهُمْ صَارُوا يَعْتَرِضُونَ قَوَافِلَ قُرَيْشٍ الذَّاهِبَةَ إِلَى الشَّامِ وَيُقَاتِلُونَ حُرَّاسَهَا وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهَا، حَتَّى أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ تُنَاشِدُهُ اللهَ وَالرَّحِمَ وَتُخْبِرُهُ بِأَنَّ مِنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ مُسْلِمًا فَهُوَ آمِنٌ.

فَهِمَ الْمُسْلِمُونَ حِكْمَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ وَقَّعَ مُعَاهَدَةَ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُمْ غَاضِبُونَ، وَتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّ اللهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَالنُّصْرَةَ بِإِذْنِ اللهِ لَهُمْ، وَيَكْفِي أَنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْ قُرَيْشٍ لِمُدَّةِ عَشَرَةِ أَعْوَامٍ، وَالْتَفُّوا حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ فِي زَحْفِهِ نَحْوَ يَهُودِ خَيْبَرَ الَّذِينَ يَحْتَمُونَ بِحُصُونِهِمُ الْمَنِيعَةِ، وَحَوَّلُوهَا إِلَى جُحُورٍ لِلتَّآمُرِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَزَرْعِ الْفِتْنَةِ وَالشِّقَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

حِينَ عَرَفَ يَهُودُ خَيْبَرَ بِمَسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهِمْ، أَسْرَعُوا إِلَى حُصُونِهِمْ يَحْتَمُونَ فِيهَا وَيُقَاتِلُونَ مَنْ دَاخِلِهَا، وَحَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يُجْبِرُوهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، لَكِنَّهُمْ أَبَدًا لَا يُقَاتِلُونَ فِي السَّاحَاتِ، لَكِنَّهُمْ دَائِمًا مَا يُقَاتِلُونَ مِنْ وَرَاءِ الْحُصُونِ، وَدَافَعُوا عَنْ حُصُونِهِمْ دِفَاعًا مُسْتَمِيتًا، لَكِنَّهَا تَسَاقَطَتْ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ، وَفِي النِّهَايَةِ بَعَثُوا إِلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ حَقْنَ دِمَائِهِمْ وَيَسْمَحُ لَهُمْ بِالْجَلَاءِ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا، وَتَرَكَهُمْ يَخْرُجُونَ، لِيَنْضَمُّوا إِلَى مَنْ سَبَقَهُمْ بِالْجَلَاءِ عَنِ الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيَعُودُوا إِلَى التِّيهِ فِي الصَّحْرَاءِ.

21

وَصَلَتْ أَنْبَاءُ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى يَثْرِبَ، وَتَغَيُّرِ اسْمِهَا إِلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَبَشَةِ، فَقَامَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِاسْتِئْجَارِ سَفِينَتَيْنِ عَادَ بِهِمَا الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَرِحَ الرَّسُولُ ﷺ بِعَوْدَةِ ابْنِ عَمِّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَقَبَّلَ جَعْفَرًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ:

- وَاللهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ.. بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟!

لَمْ يَكُنْ فَرَحُ الرَّسُولِ ﷺ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ وَحْدَهُ، بَلْ كَانَ فَرَحُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِعَوْدَةِ الْمُهَاجِرِينَ كُلِّهِمْ، فَأَيُّ مُسْلِمٍ يَأْتِي إِلَى الْمَدِينَةِ يُسَرُّ قَلْبُهُ الطَّاهِرُ النَّقِيُّ. وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَى أَنَّ هَؤُلَاءِ أَحَقُّ بِهِ مِنْ مُهَاجِرِي مَكَّةَ، فَهُمْ لَهُمْ هِجْرَتَانِ، أَمَّا مُهَاجِرُو مَكَّةَ فَلَهُمْ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ.

وَعَمِلَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى أَنْ يَعْرِفَ الْقَادِمُونَ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى عَرَفُوهُ، وَانْتَظَمُوا فِي مَوَاكِبِ الْجِهَادِ مَعَ مَنْ سَبَقُوهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَبَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ فِي إِرْسَالِ السَّرَايَا، الْوَاحِدَةِ بَعْدَ الْأُخْرَى، إِلَى كُلِّ الْقَبَائِلِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي فَيَافِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ، تَحْمِلُ مَعَهَا كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَنْشُرُونَ الدِّينَ الْجَدِيدَ. وَقَدْ دَخَلَتْ قَبَائِلُ كَثِيرَةٌ فِي دِينِ اللهِ الْعَادِلِ، وَانْصَرَفُوا جَمِيعًا عَنْ قُرَيْشٍ الَّتِي بَاتَتْ تَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ.

لَمْ يَكْتَفِ الرَّسُولُ الْأَمِينُ ﷺ بِنَشْرِ الدَّعْوَةِ فِي الْجَزِيرَةِ فَقَطْ، لَكِنَّهُ ﷺ خَرَجَ بِنَظَرِهِ بَعِيدًا عَنْ حُدُودِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَوَجَدَ الْفُرْسَ يَحْتَلُّونَ أَجْزَاءً كَبِيرَةً فِي جَنُوبِهَا،

وَالرُّومَانَ يَحْتَلُّونَ أَجْزَاءً أُخْرَى فِي شَمَالِهَا، وَإِذَا الْمَجُوسِيَّةُ قَدْ سَادَتِ الْأَقَالِيمَ التَّابِعَةَ لِلْفُرْسِ، وَالنَّصْرَانِيَّةَ قَدْ سَادَتِ الْأَقَالِيمَ التَّابِعَةَ لِلرُّومَانِ، فَقَرَّرَ ﷺ أَنْ يَصِلَ ضِيَاءُ الدِّينِ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ غَارِقٍ فِي ظَلَامِ الْجَهَالَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ، فَبَعَثَ بِرُسُلٍ مِنْهُ إِلَى رُؤَسَاءِ هَذِهِ الدُّوَلِ وَأُمَرَائِهَا يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَعِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَأَوْشَكَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ لِلْهِجْرَةِ أَنْ تَنْتَهِيَ، وَصَارَ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَذْهَبُوا لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ وَالطَّوَافِ حَوْلَ بَيْتِ اللهِ بِمَكَّةَ، وَلَا يَعْتَرِضَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِنَاءً عَلَى مُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَتَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ، وَسَاقُوا هَدْيَهُمْ وَرَاحُوا إِلَى الْكَعْبَةِ، وَلَمْ يَشَإِ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، فَأَخْلَوْا مَكَّةَ وَانْسَحَبُوا إِلَى الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا وَتَرَكُوهَا لِلْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ رَاحُوا يَتَنَدَّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ يُعَانُونَ التَّعَبَ وَالْإِجْهَادَ.

وَصَلَتْ كَلِمَاتُهُمْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يُكَذِّبَ شَائِعَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ يُرِيَهُمْ بَأْسَ الْمُسْلِمِينَ، فَتَوَشَّحَ رِدَاءَهُ وَكَشَفَ عَنْ عَضُدِهِ الْأَيْمَنِ وَهُوَ يَقُولُ:

- رَحِمَ اللهُ امْرَءًا أَرَاهُمُ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً.

وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ، وَرَاحَ يَطُوفُ حَوْلَ الْبَيْتِ مُهَرْوِلًا وَأَصْحَابُهُ مِنْ حَوْلِهِ.

أَدَّى الْمُسْلِمُونَ عُمْرَتَهُمْ، وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ، وَأَقَامُوا يُؤَدُّونَ صَلَوَاتِ اللهِ كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ قَوِيُّهُمْ ضَعِيفَهُمْ، وَيُسَاعِدُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ، وَالرَّسُولُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ يَتَنَقَّلُ بَيْنَهُمْ، أَبًا مُحِبًّا لَهُمْ، وَالْمُشْرِكُونَ يُرَاقِبُونَهُمْ مِنْ سُفُوحِ جِبَالِهِمْ، يَرَوْنَ رِجَالًا هَذِهِ

أَخْلَاقُهُمْ: لَا يَشْرَبُونَ خَمْرًا، وَلَا يَأْتُونَ بِمَعْصِيَةٍ، وَلَا يُغْرِيهِمْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَكَانَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُنَفِّذَ وَعْدَهُ، فَأَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالرَّحِيلِ، وَخَرَجَ عَنْ مَكَّةَ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ عَائِدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، يُوَاصِلُونَ جِهَادَهُمْ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ لِدِينِ اللهِ، وَتَأْسِيسِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ.

تَرَكَ الْمُسْلِمُونَ أَثَرًا عَظِيمًا فِي نُفُوسِ أَهْلِ مَكَّةَ جَمِيعًا، وَخَاصَّةً فِي نَفْسِ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ، فَارِسِ فُرْسَانِ قُرَيْشٍ، وَقَائِدِ جُيُوشِهَا، الَّذِي حَارَبَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ. وَذَاتَ يَوْمٍ وَقَفَ خَالِدٌ بَيْنَ عَدَدٍ مِنَ الْفُرْسَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، الَّذِي سَمِعَ خَالِدًا يَقُولُ:

- قَدِ اسْتَبَانَ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ بِسَاحِرٍ وَلَا شَاعِرٍ، وَأَنَّ كَلَامَهُ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ لَبِيبٍ أَنْ يَتَّبِعَهُ.

فَزِعَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مِمَّا سَمِعَ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَصَاحَ فِيهِ يَقُولُ لَهُ:

- لَقَدْ صَبَأْتَ يَا خَالِدُ.

رَدَّ خَالِدٌ فِي هُدُوءٍ وَقَالَ:

- لَمْ أَصْبَأْ وَلَكِنَّنِي أَسْلَمْتُ.

رَاحَ عِكْرِمَةُ يُبَيِّنُ لِخَالِدٍ خَطَأَ مَا فَعَلَ، وَيَقُولُ لَهُ:

- إِنَّ مُحَمَّدًا قَتَلَ عَمَّكَ وَابْنَ عَمِّكَ بِبَدْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَكَ مَا أَسْلَمْتُ. أَلَا تَرَى أَنَّ قُرَيْشًا تُرِيدُ قِتَالَهُ؟!

أَجَابَ خَالِدٌ وَقَالَ:

- هَذَا أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ وَحَمِيَّتُهَا، وَلَكِنَّنِي وَاللهِ أَسْلَمْتُ حِينَ تَبَيَّنَ لِي الْحَقُّ.

بَلَـغَ أَبَـا سُـفْيَانَ خَبَرُ إِسْـلَامِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيـدِ وَهُـوَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، فَأَرْسَـلَ فِي طَلَبِهِ غَاضِبًا، فَلَمْ يَهْتَمَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِغَضَبِهِ وَرَاحَ لَهُ، وَحِينَ رَآهُ أَبُو سُفْيَانَ سَأَلَهُ وَقَالَ لَهُ:

- أَحَقًّا مَا بَلَغَنِي عَنْكَ؟

رَدَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مُبْتَسِمًا وَقَالَ:

- نَعَمْ إِنَّهُ حَقٌّ.

ثَارَ أَبُو سُفْيَانَ وَصَاحَ يَقُولُ:

- وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُ حَقٌّ لَقَتَلْتُكَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ.

رَدَّ خَالِدٌ فِي ثِقَةٍ وَتَحَدٍّ وَقَالَ:

- وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ.

انْدَفَـعَ أَبُو سُـفْيَانَ غَاضِبًا نَاحِيَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يُحَاوِلُ قِتَالَـهُ، لَكِنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ حَاضِرًا مَنَعَهُ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- مَهْلًا أَبَا سُـفْيَانَ. وَاللهِ لَقَدْ خِفْتُ عَلَى نَفْسِـي أَنْ أَقُولَ مِثْلَ مَا قَالَ خَالِدٌ وَأَكُونَ عَلَى دِينِهِ، وَوَاللهِ إِنِّي أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَمُرَّ الْعَامُ حَتَّى يَتَّبِـعَ أَهْلُ مَكَّةَ كُلُّهُمْ مُحَمَّدًا.

سُـقِطَ فِي يَدِ أَبِي سُـفْيَانَ، وَابْتَعَدَ عَنْ خَالِدٍ مَقْهُورًا، وَعَادَ خَالِدٌ إِلَى دَارِهِ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَفِي مَنْ يَصْحَبُهُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ، حَتَّى الْتَقَى بِعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، فَاتَّفَقَا عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ فِي الْفَجْرِ.

وَفِي الْفَجْرِ، الْتَقَى الرَّجُلَانِ، وَأَخَذَا طَرِيقَهُمَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَفِي الطَّرِيقِ لَحِقَا بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَعَرَفَا مِنْهُ أَنَّهُ ذَاهِبٌ أَيْضًا إِلَى الرَّسُـولِ ﷺ، فَصَحِبَاهُ حَتَّى دَخَلُوا جَمِيعًا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ أَمَامَهُ وَمُبَايَعَتَهُمْ لَهُ.

وَبَاتَتْ قُرَيْشٌ تَغْلِي مِنَ الْغِلِّ وَالْغَيْظِ، فَهَاهُمْ فُرْسَانُهَا وَسَادَتُهَا يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَهَا هِيَ أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِ الْإِسْلَامِ، وَانْتِشَارِهِ فِي الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا وَتَجَاوُزِهِ حُدُودَهَا إِلَى بِلَادِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ تَصِلُ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَبِيتُونَ لَيَالِيَهُمْ وَالْكَرَاهِيَةُ تَأْكُلُ قُلُوبَهُمْ وَمُعَاهَدَةُ الْحُدَيْبِيَةِ تَمْنَعُهُمْ مِنْ قِتَالِهِ.

وَبَاتَتْ شَيَاطِينُهُمْ تُفَكِّرُ فِي طَرِيقَةٍ لِنَقْضِ هَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ، حَتَّى تَذَكَّرَتْ أَنَّ هُنَاكَ ثَأْرًا قَدِيمًا بَيْنَ قَبِيلَةِ بَنِي بَكْرٍ حَلِيفَتِهِمْ، وَقَبِيلَةِ بَنِي خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَرَاحَتْ تُوقِظُ فِي بَنِي بَكْرٍ طَلَبَ الثَّأْرِ وَتُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُمْ حُلَفَاؤُهُمْ وَأَنَّهُمْ سَيُمِدُّونَهُمْ بِالسِّلَاحِ.

وَنَجَحَتِ الشَّيَاطِينُ فِي الْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ، وَأَنْ تُشْعِلَ نَارَ الْحَرْبِ فِي نُفُوسِ بَنِي بَكْرٍ حَتَّى شَنُّوا الْحَرْبَ عَلَى قَبِيلَةِ بَنِي خُزَاعَةَ، وَرَاحُوا يُمِدُّونَهُمْ بِالسِّلَاحِ حَتَّى قَتَلُوا مِنْهُمُ الْكَثِيرَ، وَهَرَبَ مَنْ بَقِيَ مِنْ خُزَاعَةَ إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ الَّذِي يَحْرُمُ فِيهِ الْقِتَالُ، وَاسْتَجَارُوا بِاللهِ مِنْ بَنِي بَكْرٍ، لَكِنَّهُمْ نَسُوا اللهَ، وَنَسُوا قُدْسِيَّةَ الْحَرَمِ، وَحُرْمَةَ الْقِتَالِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَاسْتَمَرُّوا فِي الْقِتَالِ وَهُمْ يَقُولُونَ:

- لَا إِلَهَ الْيَوْمَ يَا بَنِي خُزَاعَةَ.

وَظَلُّوا يَقْتُلُونَ فِيهِمْ حَتَّى شَبِعُوا، وَكَفُّوا بَعْدَهَا عَنْ قِتَالِهِمْ.

22

أَدْرَكَتْ قُرَيْشٌ، وَبَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي خَطِيئَةٍ كَبِيرَةٍ بِنَقْضِهَا عَهْدَهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَرَفَ الْقَلَقُ طَرِيقَهُ إِلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَمُحَمَّدٌ لَنْ يَسْكُتَ عَلَى نَقْضِهِمْ لِعَهْدِهِمْ مَعَهُ، فَبَعَثُوا بِأَبِي سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَعْتَذِرُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَيُعِيدُ لِمُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَةِ حُرْمَتَهَا وَيَطْلُبُ سَرَيَانَهَا، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَفَضَ لِقَاءَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَتَشَفَّعَ لَهُ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَعَادَ إِلَى قُرَيْشٍ خَائِبًا، يُخْبِرُ رِجَالَهَا بِمَا لَقِيَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ.

وَأَرْسَلَتْ بَنُو خُزَاعَةَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ تَسْتَنْجِدُ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ ﷺ إِلَّا أَنْ يَهُبَّ لِنُصْرَتِهِمْ، فَلَيْسَ الرَّسُولُ ﷺ مَنْ يَتَبَاطَأُ عَنْ نَجْدَةِ حُلَفَائِهِ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِأَنْ يَتَجَهَّزُوا لِلْقِتَالِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَائِرُونَ إِلَى مَكَّةَ، فَاسْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ لِأَمْرِ رَسُولِهِمْ ﷺ، وَرَاحُوا يَسْتَعِدُّونَ وَهُمْ مُدْرِكُونَ أَنَّ السَّاعَةَ الْفَاصِلَةَ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ حَانَتْ.

وَبَدَأَ جَيْشُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَخْذَ طَرِيقِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَفِي الطَّرِيقِ انْضَمَّتْ إِلَيْهِمُ الْكَثِيرُ مِنْ قَبَائِلِ سُلَيْمٍ وَمُزَيْنَةَ وَغَطَفَانَ وَغَيْرِهِمْ حَتَّى صَارُوا عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ يَبْحَثُونَ عَنِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

حِينَ عَادَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ يُعْلِنُ فَشَلَهُ فِي لِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ، أَدْرَكَ الْعَبَّاسُ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ آنَ الْأَوَانُ لِلْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ قَدْ أَسْلَمَ هُوَ وَأَهْلُهُ، وَلَمْ يُهَاجِرْ إِلَى الْمَدِينَةِ تَنْفِيذًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَكُونَ عَيْنًا لَهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَالْتَقَى مَعَ ابْنِ أَخِيهِ وَجَيْشِهِ فِي الْجُحْفَةِ فَعَادَ مَعَهُ. وَوَاصَلَ جَيْشُ

الْمُسْلِمِينَ طَرِيقَهُ نَحْوَ مَكَّةَ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَرِّ الظَّهْرَانِ، بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ، وَكَانَ الْوَقْتُ عِشَاءً، فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُعَسْكِرَ هُنَاكَ، وَأَنْ يُشْعِلَ كُلُّ مُجَاهِدٍ نَارًا أَمَامَ خَيْمَتِهِ، فَنَصَبَ الْمُجَاهِدُونَ خِيَامَهُمْ، وَأَوْقَدُوا نَارَهُمْ، فَأَضَاءَتِ النِّيرَانُ الْوَادِيَ كُلَّهُ.

رَأَى الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ النِّيرَانَ فَأَصَابَهُمُ الرُّعْبُ، فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ زَعِيمُ مَكَّةَ يُصَاحِبُهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ قَرِيبُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ g ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ، يَسْتَكْشِفُونَ لِمَنْ هَذِهِ النِّيرَانُ.. وَحِينَ اقْتَرَبُوا مِنَ الْوَادِي، وَرَأَوُا الْآلَافَ مِنْ حُفَرِ النَّارِ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:

- مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِيرَانًا قَطُّ، وَلَا عَسْكَرًا بِمِثْلِ هَذَا الْعَسْكَرِ.

رَدَّ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ وَقَالَ:

- هَذِهِ وَاللهِ خُزَاعَةُ وَقَدْ أَحْرَقَتْهَا الْحَرْبُ.

عَلَّقَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- خُزَاعَةُ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانَهَا وَعَسْكَرَهَا.

كَانَ الْعَبَّاسُ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ يَرْكَبُ بَغْلَةَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَطُوفُ عَلَى الْمُقَاتِلِينَ يَتَفَحَّصُ حَالَهُمْ، فَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ صَوْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَنَادَاهُ قَائِلًا:

- أَبَا حَنْظَلَةَ.

رَدَّ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- أَبَا الْفَضْلِ.

عَلَّقَ الْعَبَّاسُ وَقَالَ:

- وَيْحَكَ أَبَا سُفْيَانَ، هَذَا رَسُولُ اللهِ فِي النَّاسِ، وَهُوَ يَنْوِي دُخُولَ مَكَّةَ فِي الصَّبَاحِ، وَوَاللهِ لَوْ دَخَلَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا لِيَطْلُبُوا مِنْهُ الْأَمَانَ، لَيَكُونَنَّ ذَلِكَ هَلَاكَ قُرَيْشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

شَعَرَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْخَوْفِ وَقَالَ:

- فَمَا الْحِيلَةُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟!

رَدَّ الْعَبَّاسُ وَقَالَ:

- وَاللهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ مُحَمَّدٌ لِيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَارْكَبْ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَطْلُبَ مِنْهُ الْأَمَانَ لَكَ.

رَكِبَ أَبُو سُفْيَانَ بَغْلَةَ الرَّسُولِ ﷺ خَلْفَ الْعَبَّاسِ، وَسَارَ الْعَبَّاسُ بِهِ وَمِنْ خَلْفِهِمَا حَكِيمٌ وَبُدَيْلٌ، بَيْنَ خِيَامِ الْمُجَاهِدِينَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى مَرُّوا بِنَارِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ d فَهَبَّ وَاقِفًا يَتَسَاءَلُ وَيَقُولُ:

- مَنْ هَذَا؟

رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ d أَبَا سُفْيَانَ رَاكِبًا خَلْفَ الْعَبَّاسِ بَغْلَةَ الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ فِي دَهْشَةٍ:

- أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُّ اللهِ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ.

أَسْرَعَ عُمَرُ d إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ خَيْمَتَهُ وَقَالَ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ، فَدَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

سَمِعَ الْعَبَّاسُ مَا قَالَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ d ، فَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِعَمِّهِ:

- خُذْهُ إِلَى رَحْلِكَ، وَأْتِنِي بِهِ فِي الصَّبَاحِ.

خَـرَجَ الْعَبَّـاسُ بِأَبِي سُـفْيَانَ، وَعَرَضَ الرَّسُـولُ ﷺ عَلَى حَكِيمِ بْنِ حِـزَامٍ قَرِيبِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ g ، وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَا.

وَفِي الصَّبَاحِ.. جَاءَ الْعَبَّاسُ بِأَبِي سُفْيَانَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي قَالَ لَهُ:

- وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!

رَدَّ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- بِأَبِـي أَنْتَ وَأُمِّي يَا مُحَمَّدُ، مَا أَحْلَمَـكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ آخَرُ مَا أَغْنَى عَنْهُ مِنْ شَيْءٍ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

رَدَّ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَمَّا هَذِهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الْآنَ شَيْئًا.

صَاحَ الْعَبَّاسُ فِي أَبِي سُفْيَانَ وَقَالَ لَهُ:

- أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ.

اضْطُرَّ أَبُو سُـفْيَانَ إِلَى أَنْ يُعْلِنَ إِسْـلَامَهُ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِابْنِ أَخِيهِ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا.

اسْتَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ لِطَلَبِ عَمِّهِ وَقَالَ:

- نَعَـمْ، مَـنْ دَخَـلَ دَارَ أَبِي سُـفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَـنْ أَغْلَقَ بَابَـهُ فَهُوَ آمِـنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

هَمَّ الْعَبَّاسُ بِالِانْصِرَافِ بِأَبِي سُفْيَانَ، وَإِذَا بِالرَّسُولِ ﷺ يَسْتَوْقِفُهُ، وَيَقُولُ لَهُ:

- يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ؛ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا.

خَرَجَ الْعَبَّاسُ يُنَفِّذُ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ، وَحَبَسَ أَبَا سُفْيَانَ حَيْثُ أَمَرَهُ، وَبَدَأَ الْمُقَاتِلُونَ يَمُرُّونَ مِنْ أَمَامِهِمَا، فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَكَّةَ، وَهُمْ يَرْفَعُونَ رَايَاتِ قَبَائِلِهِمْ، يَسْأَلُ أَبُو سُفْيَانَ عَنْهُمْ وَيُجِيبُهُ الْعَبَّاسُ عَنِ اسْمِ الْقَبِيلَةِ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، حَتَّى مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ، فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا دُرُوعُ الْحَدِيدِ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ:

- سُبْحَانَ اللهِ يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟

رَدَّ الْعَبَّاسُ وَقَالَ:

- هَذَا رَسُولُ اللهِ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

عَلَّقَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- مَا لِأَحَدٍ قُوَّةٌ وَلَا طَاقَةٌ بِهَا هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ قَالَ:

- وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا.

قَالَ الْعَبَّاسُ:

- يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

عَلَّقَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- فَنَعَمْ إِذَنْ.

قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ نَاصِحًا:

- النَّجَاةَ إِلَى قَوْمِكَ.

أَسْرَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ لِيُحَذِّرَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَبَيْنَمَا الْمُشْـرِكُونَ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ سَادَتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِقِتَالِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الَّـذِي يَقْتَـرِبُ مِنْهُمْ رُوَيْدًا رُوَيْـدًا، إِذَا بِهِمْ يَسْـمَعُونَ صَوْتَ أَبِي سُـفْيَانَ يَأْتِيهِمْ عَالِيًا وَاضِحًا يَقُولُ:

- يَا مَعْشَـرَ قُرَيْشٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ فِيمَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ.

ذُهِلَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ مِنْ كَلَامِ زَوْجِهَا، فَأَسْرَعَتْ تُمْسِكُ بِشَارِبِهِ تَلْوِيهِ وَهِيَ تَقُولُ:

- اقْتُلُوا هَذَا الزِّقَّ الْمُنْتَفِخَ!

لَمْ يَأْبَهْ أَبُو سُـفْيَانَ لِزَوْجَتِهِ وَلَا بِسِـبَابِهَا لَهُ، وَظَلَّ يَصِيحُ فِي النَّاسِ يُحَذِّرُهُمْ وَيَقُولُ لَهُمْ:

- وَيْلَكُـمْ، لَا تَغُرَّنَّكُـمْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ مَـا لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ.

رَدَّ الرِّجَالُ وَقَالُوا:

- قَاتَلَكَ اللهُ أَبَا سُفْيَانَ، وَمَا تُغْنِي دَارُكَ عَنَّا؟

صَاحَ الرَّجُلُ يَقُولُ:

- وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

سَـمِعَ النَّـاسُ النَّصِيحَةَ، وَتَفَرَّقُـوا إِلَى بُيُوتِهِـمْ وَإِلَى الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ، وَأَصْبَحَتْ شَوَارِعُ أُمِّ الْقُرَى خَالِيَةً فِي انْتِظَارِ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ الرَّسُـولُ ﷺ قَادَةَ جَيْشِـهِ بِـأَلَّا يُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُـمْ، زَحَفَ الْجَيْشُ يَدْخُلُ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ أَنْحَائِهَا.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَقَلْبُهُ مُفْعَمٌ بِالشُّكْرِ لِلهِ الَّذِي أَعَادَهُ عَزِيزًا مُنْتَصِرًا إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي آذَاهُ وَعَذَّبَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَدِيَارِهِ، وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ خُشُوعًا لِلهِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي الشَّوَارِعِ الَّتِي حُرِمَ مِنْهَا، وَقَدْ سَكَنَتْ وَاسْتَسْلَمَ سَادَتُهَا، وَعَلَتْ كَلِمَةُ اللهِ فِي جَنَبَاتِهَا.

طَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَ الْبَيْتِ سَبْعًا، ثُمَّ بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ يَكْسِرُ الْأَصْنَامَ الْمَرْصُوصَةَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَالَّتِي كَانَتْ مُنْذُ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ آلِهَةً مُقَدَّسَةً، وَهُوَ يَقُولُ:

- جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

وَحِينَ تَمَّ لِلرَّسُولِ ﷺ تَطْهِيرُ الْمَسْجِدِ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَالْمُشْرِكُونَ صَامِتُونَ لَا يَنْطِقُونَ، وَقَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ وَقَالَ:

- لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

ثُمَّ وَجَّهَ حَدِيثَهُ لِأَهْلِ قُرَيْشٍ الْمُجْتَمِعِينَ حَوْلَهُ وَقَالَ لَهُمْ:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

قَالُوا:

- خَيْرًا تَفْعَلُ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

قَالَ ﷺ:

- فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ مَا قَالَهُ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

وَجَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَصَعِدَ بِلَالٌ ظَهْرَ الْكَعْبَةِ، وَارْتَفَعَ صَوْتُهُ بِالْأَذَانِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

سَمِعَ أَهْلُ مَكَّةَ النِّدَاءَ لِلصَّلَاةِ، كَأَنَّهُمْ فِي حُلْمٍ، فَكِلِمَاتُ الْأَذَانِ تُمَثِّلُ أُسُسَ الدَّعْوَةِ الَّتِي قَاتَلَ مِنْ أَجْلِهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ، وَتَحَمَّلَ مِنْ أَجْلِهَا أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَقَدْ جَاءَهُ نَصْرُ اللهِ الْيَوْمَ، وَهَاهُمْ قَدِ اطْمَأَنُّوا لِعَفْوِهِ عَنْهُمْ، فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوهُ رِجَالًا وَنِسَاءً.

وَأَقَامَ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي مَكَّةَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، نَظَّمَ خِلَالَهَا شُئُونَهَا، وَفَقَّهَ أَهْلَهَا فِي الدِّينِ، وَبَعَثَ سَرَايَاهُ لِتَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ دُونَ سَفْكِ دِمَاءٍ، حَتَّى قَضَى عَلَى آثَارِ الْوَثَنِيَّةِ بِهَا وَبِمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقَبَائِلِ.

وَهَكَذَا.. ارْتَفَعَ مَنَارُ التَّوْحِيدِ يَنْتَشِرُ نُورُهُ الْوَضَّاءُ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنْ أُمِّ الْقُرَى، أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَبَدَأَتِ الْوَسَاوِسُ تَعْرِفُ طَرِيقَهَا إِلَى قُلُوبِ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

- لَقِيَ وَاللهِ رَسُولُ اللهِ قَوْمَهُ.

وَظَنُّوا أَنَّهُ ﷺ لَنْ يَعُودَ مَعَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَرَاحَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يُبَلِّغُ الرَّسُولَ ﷺ مَا قَالَهُ الْأَنْصَارُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ:

- اجْمَعْ لِي قَوْمَكَ.

جَمَعَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ قَوْمَهُ، وَجَاءَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ فَطَمْأَنَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَرْجِعُونَ بِهِ إِلَى مَدِينَتِهِمْ، وَأَقْسَمَ لَهُمْ أَنَّهُ لَوْ سَلَكَتِ النَّاسُ كُلُّهَا طَرِيقًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ طَرِيقًا آخَرَ لَسَارَ فِي طَرِيقِ الْأَنْصَارِ، وَدَعَا اللهَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَرْحَمَ أَبْنَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَ أَبْنَائِهِمْ، فَبَكَى الْأَنْصَارُ تَأَثُّرًا وَقَالُوا:

- رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا.

وَاعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ فِي مَكَّةَ مَنْ يُدِيرُ شُئُونَهَا، وَمَنْ يُفَقِّهُ النَّاسَ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَعَادَ مَعَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

23

نَجَحَتِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ نَجَاحًا تَحَيَّرَتْ لَهُ الْعُقُولُ، وَانْتَشَرَتْ فِي آفَاقِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، وَصَحَّتِ الْعُقُولُ الْعَلِيلَةُ وَعَرَفَتِ الطَّرِيقَ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَشَقَّ الْأَذَانُ لِلصَّلَوَاتِ أَجْوَاءَ الْفَضَاءِ خِلَالَ الصَّحْرَاءِ الَّتِي أَحْيَاهَا الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ، وَانْطَلَقَ الْقُرَّاءُ شَمَالًا وَجَنُوبًا، يَتْلُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ، وَيُقِيمُونَ أَحْكَامَ اللهِ. وَتَوَحَّدَتِ الشُّعُوبُ وَالْقَبَائِلُ الْمُتَنَاثِرَةُ، وَخَرَجَ الْإِنْسَانُ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ قَاهِرٌ وَمَقْهُورٌ، وَسَادَاتٌ وَعَبِيدٌ، وَحُكَّامٌ وَمَحْكُومُونَ، وَظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ، وَإِنَّمَا النَّاسُ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ، إِخْوَانٌ مُتَحَابُّونَ، مُمْتَثِلُونَ لِأَحْكَامِهِ، وَلَمْ يَبْقَ هُنَاكَ فَضْلٌ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. وَتَمَّتْ أَعْمَالُ الدَّعْوَةِ، وَبِنَاءُ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ يُؤْمِنُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَجَاءَتِ السَّنَةُ الْعَاشِرَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَعْلَنَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ نِيَّتِهِ فِي الْخُرُوجِ لِلْحَجِّ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ تِسْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَانْطَلَقُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ظُهْرَ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَقَضَوْا فِي الطَّرِيقِ ثَمَانِيَ لَيَالٍ، حَتَّى دَخَلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَطَافُوا بِالْبَيْتِ، وَسَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَصَعِدُوا فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى عَرَفَةَ، وَقَضَى الرَّسُولُ ﷺ يَوْمَهُ هُنَاكَ وَسَطَ جُمُوعٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْحَجِيجِ، وَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِمْ خُطْبَةً ذَكَرَ فِيهَا الْمَبَادِئَ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، وَطَالَبَهُمْ بِالْعَمَلِ بِهَا حَتَّى تَسْتَقِيمَ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَأَتَمَّ الْأَمِينُ ﷺ حَجَّتَهُ، وَذَبَحَ هَدْيَهُ، وَعَادَ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَقَامَ فِيهَا بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ وَصَفَرٍ. وَفِي أَوَائِلِ صَفَرٍ مِنَ الْعَامِ الْحَادِيَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ يُجَهِّزُ جَيْشَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ لِلْخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ؛ لِيَصِلَ بِالْإِسْلَامِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَتَكُونَ بِدَايَةَ الْخُرُوجِ بِالدَّعْوَةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَيْثُ الْمَنْشَأُ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ مَشْرِقِهِ وَمَغْرِبِهِ.

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ لَيَالٍ قَلِيلَةٍ وَيَنْتَهِي شَهْرُ صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَيُصَابُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِوَعْكَةٍ طَارِئَةٍ، ظَنَّ أَهْلُ بَيْتِهِ وَالصَّحَابَةُ أَنَّهَا لَنْ تَلْبَثَ أَنْ تَزُولَ، وَلَمْ يَتَخَيَّلْ أَحَدٌ أَنَّهُ مَرَضُ الْمَوْتِ.

وَاسْتَأْذَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَوَافَقْنَ جَمِيعُهُنَّ، وَانْتَقَلَ الْأَمِينُ ﷺ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، وَحِينَ تَمَدَّدَ عَلَى فِرَاشِهِ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ:

- مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ.

وَلَمَّا زَادَ الْمَرَضُ عَلَى جَسَدِهِ الشَّرِيفِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهُ الْحُمَّى، اجْتَمَعَ الْأَنْصَارُ بِالْمَسْجِدِ وَهُمْ قَلِقُونَ عَلَيْهِ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ يُخْبِرُهُ بِحَالِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مَعْصُوبَ الرَّأْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، بَيْنَمَا الْعَبَّاسُ يَسِيرُ أَمَامَهُمَا، وَأَجْلَسُوهُ ﷺ عَلَى أَوَّلِ دَرَجَةٍ فِي الْمِنْبَرِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهُ فَقَالَ لَهُمْ:

- أَيُّهَا النَّاسُ، بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ، هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بَعَثَ اللهُ، فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ؟! أَلَا إِنِّي لَاحِقٌ بِرَبِّي، وَأَنْتُمْ لَاحِقُونَ بِي.

وَظَلَّ الرَّسُولُ ﷺ يَعِظُ النَّاسَ حَتَّى قَالَ:

- أَلَا فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَدًا فَلْيَكْفُفْ يَدَهُ وَلِسَانَهُ إِلَّا فِيمَا يَنْبَغِي.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ لِيَوْمِ الِاثْنَيْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِهِمْ، رُفِعَ السِّتْرُ مِنْ بَابِ بَيْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ g ، وَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ عَاصِبًا رَأْسَهُ، فَمَا إِنْ لَمَحَهُ النَّاسُ حَتَّى فَرِحُوا بِهِ وَكَادُوا يُفْتَنُونَ فِي صَلَاتِهِمْ، لَوْلَا أَنَّهُ ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنِ اثْبُتُوا عَلَى صَلَاتِكُمْ.

وَشَعَرَ أَبُو بَكْرٍ بِمَا كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ خَلْفَهُ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ لَمْ يَصْنَعُوا ذَلِكَ إِلَّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَرَاجَعَ يُفْسِحُ مَكَانَهُ لِلرَّسُولِ يَؤُمُّ النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ، لَكِنَّهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ قَالَ لَهُ:

- صَلِّ بِالنَّاسِ.

وَجَلَسَ ﷺ عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ، فَصَلَّى قَاعِدًا، حَتَّى إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ أَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى نَبِيِّهِمْ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ، يُهَلِّلُونَ وَيَدْعُونَ وَيُبَارِكُونَ، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّهَا صَحْوَةُ الْمَوْتِ.

دَخَلَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ بَيْتَهُ وَالْوَقْتُ ضُحًى، فَاضْطَجَعَ عَلَى فِرَاشِهِ فِي حِجْرِ زَوْجِهِ عَائِشَةَ، فَلَمْ تَشْعُرْ إِلَّا بِرَأْسِهِ وَقَدْ ثَقُلَ فِي حِجْرِهَا، وَنَظَرَتْ فِي وَجْهِهِ فَإِذَا بَصَرُهُ شَاخِصٌ إِلَى السَّمَاءِ، فَعَرَفَتْ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

مِنْ بَيْتِ الْمُصْطَفَى عَلَا نَحِيبُ النِّسَاءِ، فَصَكَّ مَسْمَعَ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدِ اسْتَبْشَرَتْ بِرُؤْيَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ! وَمِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ، وَجَمَ النَّاسُ، وَصَارُوا بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ لِمَا يَسْمَعُونَ. وَكَانَ

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ d أَشَدَّ مَنْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ مَاتَ! وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ d حَتَّى دَخَلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي بَيْتِ ابْنَتِهِ عَائِشَةَ، فَإِذَا هُوَ مُسَجًّى هُنَاكَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مَحْزُونًا حَتَّى كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ:

- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْكَ فَقَدْ ذُقْتَهَا، ثُمَّ لَنْ تُصِيبَكَ بَعْدَهَا مَوْتَةٌ أَبَدًا.

ثُمَّ رَدَّ الْبُرْدَ عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ ﷺ، وَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ الْمُحْتَشِدِينَ فِي الْمَسْجِدِ، وَقَالَ لَهُمْ:

- عَلَى رِسْلِكَ يَا عُمَرُ، أَنْصِتْ! أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

ثُمَّ تَلَا الْآيَةَ، مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران: 144).

صَدَّقَ النَّاسُ مَوْتَ رَسُولِهِمْ، وَجَهَّزُوهُ لِلرَّحِيلِ. ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ بَيْتِهِ لِأُلُوفِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ يُوَدِّعُونَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، الرِّجَالُ مِنْهُمْ أَوَّلًا، ثُمَّ النِّسَاءُ، ثُمَّ الصِّبْيَانُ.

وَدَفَنُوهُ حَيْثُ قُبِضَ، فِي بَيْتِ زَوْجِهِ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ f .

رَفَعُوا فِرَاشَهُ وَحَفَرُوا لَهُ تَحْتَهُ، ثُمَّ أَضْجَعُوهُ هُنَاكَ فِي لَيْلِ الْأَرْبِعَاءِ مِنْ ذَلِكَ الشَّهْرِ، رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ هِجْرَتِهِ. وَقَدْ أَتَمَّ رِسَالَتَهُ ﷺ.

أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ

س1: مَتَى وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ؟ وَلِمَاذَا سُمِّيَ الْعَامُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ بِعَامِ الْفِيلِ؟

س2: مَنِ الَّذِي سَمَّى النَّبِيَّ ﷺ؟ وَلِمَاذَا اخْتَارَ لَهُ هَذَا الِاسْمَ؟

س3: كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْرًا وَبَرَكَةً عَلَى حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ وَأَهْلِهَا؟

س4: مَتَى قَرَّرَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ إِرْجَاعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أُمِّهِ؟ وَلِمَاذَا؟

س5: كَمْ كَانَ عُمْرُ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ؟ وَأَيْنَ تُوُفِّيَتْ؟

س6: مَنِ الَّذِي كَفَلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهِ؟ وَمَتَى تُوُفِّيَ؟

س7: لِمَاذَا رَعَى النَّبِيُّ ﷺ الْغَنَمَ وَهُوَ فِي بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س8: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ؟ وَبِمَاذَا كَانَتْ تُلَقَّبُ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ؟

س9: لِمَاذَا تَنَازَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي مَكَانِهِ؟ وَكَيْفَ حَكَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ؟

س10: فِي أَيِّ مَكَانٍ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ وَلِمَاذَا كَانَ يَذْهَبُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟

س11: كَيْفَ اسْتَقْبَلَتْ خَدِيجَةُ g دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س12: مَنْ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

س13: أَيْنَ كَانَ يَجْتَمِعُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ لِيُعَلِّمَهُمْ أُصُولَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ فِي مَكَّةَ؟

س14: مَتَى وَكَيْفَ جَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالدَّعْوَةِ؟ وَبِمَاذَا قَابَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ؟

س15: مَا الشُّبُهَاتُ الَّتِي أَطْلَقَهَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ؟ وَهَلِ اقْتَنَعَ بِهَا النَّاسُ؟

س16: لِمَاذَا اتَّجَهَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى تَعْذِيبِ وَاضْطِهَادِ الْمُسْلِمِينَ؟ وَمَا وَسَائِلُهُمْ فِي التَّعْذِيبِ؟

س17: لِمَاذَا هَاجَرَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ؟ وَمَنِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَيْهَا؟

س18: مَاذَا طَلَبَ وَفْدُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ مِنْ أَبِي طَالِبٍ؟ وَهَلْ وَافَقَهُمْ عَلَى مَا طَلَبُوا؟

س19: مَا قِصَّةُ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَمَا دَلَالَاتُهَا؟

س20: كَيْفَ أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؟ وَمَا أَثَرُ إِسْلَامِهِ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ؟

س21: مَاذَا عَرَضَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ وَبِمَاذَا رَدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؟

س22: بِمَاذَا شَهِدَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؟ وَبِمَاذَا نَصَحَ قُرَيْشًا؟

س23: مَا الْحِصَارُ الِاقْتِصَادِيُّ الَّذِي فَرَضَتْهُ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ؟ وَكَمِ اسْتَمَرَّ؟

س24: كَيْفَ انْتَهَى الْحِصَارُ الْاِقْتِصَادِيُّ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س25: بِمَاذَا سُمِّيَ الْعَامُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ وَخَدِيجَةُ g ؟

س26: لِمَاذَا ذَهَبَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا؟

س27: مَتَى حَدَثَتْ حَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ والْمِعْرَاجِ؟ وَمَا أَثَرُهَا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ؟

س28: كَيْفَ اسْتَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ خَبَرَ إِسْرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَهُ أَبُو بَكْرٍ d ؟

س29: مَتَى حَدَثَتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْأُولَى؟ وَكَمْ كَانَ عَدَدُ الْمُبَايِعِينَ؟ وَعَلَامَ بَايَعُوا؟

س30: مَنْ هُوَ سَفِيرُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى أَهْلِ يَثْرِبَ؟ وَهَلْ وُفِّقَ فِي مُهِمَّتِهِ؟

س31: مَتَى حَدَثَتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الْأُولَى؟

س32: مَا خُطَّةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى يَثْرِبَ؟ وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَدُلُّ؟

س33: مَا أَوَّلُ مَسْجِدٍ أُسِّسَ فِي الْإِسْلَامِ؟ وَمَنِ الَّذِي أَسَّسَهُ؟

س34: كَيْفَ اسْتَغَلَّ الرَّسُولُ ﷺ الْمَكَانَ الَّذِي بَرَكَتْ فِيهِ نَاقَتُهُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ؟

س35: مَنْ صَاحِبُ رُؤْيَا الْأَذَانِ؟ وَمَنْ مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ ﷺ؟

س36: مَاذَا فَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س37: مَتَى وَقَعَ حَادِثُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ؟ وَمَا أَثَرُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ؟

س38: كَيْفَ غَدَرَ يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاعَ بِعَهْدِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَبِمَاذَا عَاقَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ؟

س39: مَاذَا فَعَلَ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ أُحُدٍ؟ وَكَيْفَ تَصَرَّفَ مَعَهُمْ ﷺ؟

س40: مَا الدَّوْرُ الَّذِي لَعِبَهُ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ؟ وَبِمَاذَا حَكَمَ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ d ؟

س41: مَا شُرُوطُ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ؟ وَهَلْ وَافَقَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ؟

س42: مَتَى رَجَعَ مُهَاجِرُو الْحَبَشَةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَمَنْ كَانَ قَائِدَهُمْ؟

س43: فِي أَيِّ عَامٍ أَدَّى الرَّسُولُ ﷺ الْعُمْرَةَ؟ وَمَاذَا فَعَلَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقْتَهَا؟

س44: كَيْفَ وَمَتَى أَسْلَمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؟ وَمَنْ كَانَ رَفِيقَهُ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ؟

س45: مَنِ الَّذِي نَقَضَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ؟ وَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟

س46: مَاذَا فَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَهَا مَعَهُ؟

س47: لِمَاذَا ظَلَّ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِسْلَامِهِ؟ وَمَتَى هَاجَرَ مِنْهَا؟

س48: كَيْفَ أَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ زَعِيمُ مَكَّةَ؟ وَبِمَاذَا نَصَحَ قَوْمَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ؟

س49: مَاذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ فَتَحَهَا؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س50: مَتَى كَانَتْ حِجَّةُ الْوَدَاعِ؟ وَكَمْ عَدَدُ مَنْ حَجَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ؟

س51: مَتَى تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ الصَّحَابَةُ هَذَا الْحَادِثَ الْمُرَوِّعَ؟